حسين مهنا

دَبيبُ نملة

رِواية

Scanned with CamScanner

دَبيبُ نملة

حسين مهنا

تصميم الغلاف والتنضيد: بلقيس شله (عبد)

حقوق الطبع محفوظة لدار النشر

منشورات أ.دار الهدى
عبد زحالقة
050-5252917 050-5708835 04-6353439

إصدار 2018

Scanned with CamScanner

الفَصْلُ الأَول

1

ما بَينَ آخِرِ زُغْرودَةٍ تُبارِكُ العَروسَينِ بِدُخولِهِما غُرْفةً سَتَجْمَعُهما بها فَرْشَةٌ واحدَةٌ، وبَينَ شَهْقةِ طِفْلِهِما البِكْرِ سَبْعَةُ أشْهُرٍ.. وحينَ أعْلَنَتِ القابِلَةُ أنَّ المَولودَ ذَكَرٌ، وهو بِعافِيَةٍ مَولودٍ ابنِ تِسْعةِ أشْهُرٍ؛ وأعْقَبَتْ إعْلانَها هذا بِكَلِمَةِ (مَبْروك)! لم تَلْقَ تَجاوُباً مِنَ النِّساءِ اللّواتي تَجَمَّعْنَ هُناكَ كَما هي العادَةُ في سَنَواتٍ كانَتِ المَرْأَةُ لا تَلِدُ إلّا على يَدَي قابِلَةِ القَرْيَةِ، بَعيداً عَنِ المُسْتَشْفَياتِ – على نُدْرَتِها – والأَهَمُّ من ذلِكَ بَعيداً عَنِ الأَطِبّاءِ؛ فَالْمَرْأَةُ الحُرَّةُ لا تَنْكَشِفُ على رَجُلٍ غَيرِ رَجُلِها، حتّى لَو لاقَتْ حَتْفَها.

لم يخفَ على القابلةِ سببُ صَمْتِ النّسوةِ ... ومَنْ مثلُها يعرفُ أسرارَ نساءِ القريةِ، بل أسرارَ النّساءِ قاطبةً، وبماذا وكيف يُفكّرْنَ، تركتْ عشراتِ العيونِ المُحَمْلِقةِ بها وخرجتْ؛ وبخروجِ آخرِ امرأةٍ بعد خروجِ القابلةِ سُمعَ صوتُ بكاءٍ شديدٍ! إنّها الوالِدةُ (سليمة) ولا شكّ .. وبكاؤُها ليسَ بسببِ الولادةِ وما يُرافقُها من أوجاعٍ بل بماذا سيقولُ أهلُ القريةِ الآنَ !! مولودُ السّبعةِ الأَشهرِ لا يكونُ بهذا الحجمِ، ولا بهذهِ العافيةِ .. يا الله! أقلُّ ما سيقولونَهُ : إنّني مُسَبِّقَةٌ ! قالتْها وزادَ بكاؤُها مرارةً والمُسَبِّقَةُ في عُرْفِ الفلّاحينَ هي الّتي تُضاجعُ خطيبَها قبلَ الزّواجِ، يَفعلونَها ويلعنونَ الشّيطانَ، ناسينَ أنَّهُمْ قَدْ يَدْفَعونَ ثَمَناً

Scanned with CamScanner

باهِظاً!! وكيلا ينفضِحَ الأَمْرُ يُسارعُ الأهلُ بالزّواجِ بموعدٍ تكونُ الولادةُ بعدَهُ بسبعةِ أشهرٍ وسَليمَةُ لَيستْ مِنْ هؤلاءِ، وخِلالَ فَتْرَةِ الخِطْبَةِ لَمْ يَحْظَ سالِمٌ – خَطيبُها – ولو بِقُبْلَةٍ واحِدَةٍ، مِمّا جَعَلَهُ يُسارعُ بِالزّواجِ غَيرَ عالِمٍ بِأَنَّ إسْراعَهُ هذا سَيَكونُ وَبالاً عَلَيهِ وعلى زَوجَتِهِ وعلى المَولودِ الجَديدِ .

عندما عادَ (سالمٌ) الى البيتِ لم يُفاجأْ ببكائِها، بل كانَ يتوقَّعُ مِنها ذلكَ.. تبسَّم وقالَ: يا قليلةَ العقلِ ! تبكينَ!؟ وأنتِ بحالكِ أدرى والله شهيدٌ . أخذَ المولودَ بينَ راحتيهِ وقالَ:

- ما شاءَ الله! جمالٌ وعافيةٌ؛ ولكنَّ ولادتَه هذهِ ستُلحِقُ به الأذى سأسمّيهِ شَدّاداً ....

قالَها وهو على يقينٍ بأَنَّ أهلَ القريةِ قد سبقوهُ إلى تَسْمِيَتِهِ، وأسموهُ (سُباعي) ..

أَمْرٌ طَبيعيٌّ جِداً في قَرْيَةٍ تِسْعَةُ أَعْشارِها جَهْلٌ، والتُّسْعُ الباقي يَعْمَلُ على أَنْ يَظَلَّ الجَهْلُ سائِداً! أَنْ يَتَقَوَّلوا الأَقاويلَ عَنْ سالِمٍ وغَيرِهِ.. وفَجْأَةً يَنْسى سالِمٍ أوجاعَ زَوجَتِهِ سَليمة وهَواجِسَها، ويَقَعُ فَريسَةً لِنَوبَةٍ مِنَ الضَّحِكِ الهِسْتيريّ، فَقَدِ اسْتَعادَ ما حَدَثَ، ولِماذا تَرَكَ زَوجَتَهُ تَلِدُ مَولودَها وهَرَعَ مَعَ كَثيرينَ مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ:.. فَقَدْ نادى المُنادي: يا أَصْحابَ النَّخْوَةِ! علقتْ (طوشة) بين الرُّشايدة والعَوايدَة! وعِنْدَما فُضَّ الخِلافُ، وجَلَسَ الشُّيوخُ لِإصْلاحِ ذاتِ البَينِ بَينَ الطَّرَفينِ وعُرِفَ سَبَبُ القِتالِ ضَجَّتِ القاعَةُ بِالضَّحِكِ مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ.. قيلَ: ديكُ أَحْمَد الرُّشايدة قَفَزَ

على ظَهْرِ إِحْدى دَجاجاتِ جارِهِ عَلي العَوايدة - وكانا مُتَخاصِمَينِ - فَـ(بَكَّها)، فَغَضِبَ هذا وذَبَحَ ديكَهُ عِقابَاً لَهُ على قُصورِهِ في(البَكِّ) وراحَ يُطارِدُ ديكَ الجارِ لِيَنْتَقِمَ لِشَرَفِ دَجاجَتِهِ....

وحَقيقَةً، جاءَ سباعي ابنَ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ فِعْلاً، فَسَليمةُ امْرَأَةٌ شَريفَةٌ، وما كانَتْ لِتَسْمَحَ لِخَطيبِها أَنْ يَمَسَّها قَبْلَ الزَّواجِ.. وسالِمٌ أَيضاً ما كانَ لَيَفْعَلَها لِأَنَّهُ عاقِلٌ يَأْخُذُ الأُمورَ بِعَواقِبِها، ولِأَنَّهُ ما كانَ لِيُغْضِبَ الله والنّاسَ، ويَكونَ سَبَبَاً في تَعاسَةِ امْرَأَةٍ سَتَكونُ زَوجَتَهُ، لَهُ ما لَها، وعَلَيهِ ما عَلَيها.. والأَفْظَعُ مِنْ كُلِّ هذا ما كانَ لِيُحَمِّلَ مَولودَهُ وِزْرَ خَطيئَتِهِ طَوالَ حَياتِهِ... إِنَّهُ موقِنٌ أَنَّ العُقَلاءَ مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ يَحْتَرِمونَهُ لِاسْتِقامَتِهِ، وعَفافِهِ، وطَهارَةِ فَرْجِهِ مُذْ كانَ شابّاً .. وقِصَّتُهُ مَعَ زَوجَةِ أَحَدِ أَغْنِياءِ إِحْدى القُرى المُجاوِرَةِ ما زالَتْ تُحْكى كَطُرْفَةٍ مِنْ بَعْضِ أَتْرابِهِ الماجِنينَ، وكَعِظَةٍ في العِفافِ والتَّحَكُّمِ بِالإِرادَةِ مِنْ فِئَةِ المُتَّقينَ .... يَومَها كانَ في مَطْلَعِ الشَّبابِ يَفورُ شَباباً وفُتُوَّةً، ولِقِلَّةِ ما في اليَدِ عَمِلَ أَجيراً يَنْتَقِلُ من يَدٍ غَنِيّ الى يَدٍ آخَرَ .. ولأَمانَتِهِ واجْتِهادِهِ وإِجادَتِهِ جَمْيعَ أَنْواعِ العَمَلِ كانَ مَطْلوباً مِنْ جَميعِهِمْ..... جاءَتْهُ بِالفَطورِ، وكانَ مَوسِمُ الزَّيتونِ على أَشُدِّهِ وهو على الزَّيتونَةِ، والبَناتُ لاقِطاتُ الزَّيتونِ لَمْ يَكُنَّ قَدْ وَصَلْنَ بَعْدُ.. قالَتْ لَهُ بِتَحَبُّبٍ: انْزِلْ لِتُفْطِرَ.. وكَيلا يُخالِفَ التَّعْليماتِ الدّينِيَّةَ الَّتي تُحَرِّمُ اجتِماعَ الرَّجُلِ بِالمَرْأَةِ، إِنْ لَمْ تَكُنْ مَحْرَماً لَهُ، وَحيدَينِ، قالَ : لِنَنْتَظِرْ حتّى يَأْتينَ ! قالَتْ : إِنْزِلْ ! فَنَزَلَ مُطيعَاً صاحِبَةَ الأَمْرِ والنَّهي .. كانَتْ

Scanned with CamScanner

امـرأةً نَصَـفاً ولكِنَّهـا لا تَـزالُ تَحْـتَفِظُ بِقَـذْرٍ وافِـرٍ مِـنَ الرَّشَـاقَةِ والجَمالِ .. نَظَرَتْ الى فُتُوَّتِهِ نَظْرَةَ الأُنثى الَّتي قَرَّرَتْ أَنْ تَهَبَ الذَّكَرَ أُنوثَتَها، قالت: لَمْ تَدْخُلْ دُنْيا بَعْدُ !

لَمْ يَكُنْ غَبِيّاً كَيلا يَفْهَمَ أَنَّ الدُّنْيا بِمَفْهومِها هي مُعاشَرَةُ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ .. تَجاهَلَ سُؤَالَها وراحَ يَلْتَفِتُ يَميناً وشِمالاً، وراحَتْ هي تَبْحَثُ عَنْ كَلامٍ يُغْرِيهِ .. قالَتْ:

- ألا تُفَكِّرُ بِالزَّواجِ يا سَلّوم؟

وبِمُناداتِهِ بِـ (سَلّوم)، ولَمْ تُنادِهِ بِاسْمِهِ وهو الأَجيرُ وهي السِّتُّ، بَدا لَهُ قَصْدُها واضِحاً، تَظاهَرَ بِالغَباءِ، قالَ:

- لا .. فالزَّواجُ لا يَكونُ بِالمَجّان ..

- ولكنَّ لَذَةَ الزَّواجِ تَكونُ في مِثْلِ سِنِّكَ هذهِ .. خيرُكَ ما زالَ في ظُهْرِكَ !

- الحَمْدُ لِله على كُلِّ شَيءٍ .. سَيَأْتي يَومٌ أَكونُ قادِراً فيهِ على الزَّواجِ الحَلالِ !

- وأنا أَقولُ الحَمْدُ لِله أَنْ خَلَقَ الرَّجُلَ لِلْمَرْأَةِ، والمَرْأَةَ لِلرَّجُلِ .. وهَلْ هُناكَ اَمْتَعُ مِنْ أَنْ تَنامَ والى جانِبِكَ امْرَأَةٌ ..؟

- حَقيقَةً لا أَعْرِفُ ..

- يَبْدو أَنَّكَ لا تَعْرِفُ شَيئاً .. حَتَّى الحَيَوانُ يَعْرِفُ ..

تَأْخُذُ شَهيقاً عَميقاً وتَزْفِرُهُ زَفيراً حارّاً، وتُتابِعُ:

- أَنتَ فَلّاحٌ، كَيفَ يَعْرِفُ التِّيسُ العَنْزَةَ الَّتي تَطْلُبُ تَيساً؟

- يَشُمُّ رائِحَتَها .

قالَتْ وعلى وَجْهِها مِسْحَةٌ مِنْ غَضَبٍ:

- لَعَلَّكَ مُصابٌ بِالزُّكامِ يا تَيسُ !!

ما إِنْ سَمِعَ سالم ذلكَ حَتّى أَرخى قيادَهُ لِساقيهِ مُسابِقاً الرّيحَ، ومُسامِحاً بِأُجْرَةِ ذلكَ اليومِ، أَمّا كَيفَ عَرَفَ النّاسُ القِصَّةَ فَقَدْ رَوَتْها إِحْدى لاقِطاتِ الزَّيتونِ الّتي جاءَتْ مُبْكِرَةً فاسْتَتَرَتْ كي لا يَراها سالِمٌ وهي تَدْري أَنَّهُ لا يَقْبَلُ، بَلْ يُؤْمِنُ أَنَّ مِنْ غَضَبِ الله خَلْوَةُ الرَّجُلِ بِالمَرْأَةِ ..

***

ما بينَ ولادةِ شداد (سباعي) وبينَ الْتحاقِهِ بالصَّفِّ الأَوَّلِ في مدرسةِ القريةِ المتواضعةِ ببنايتِها وأثاثِها، ستُّ سنواتٍ مرّتْ بِأَحداثِهاعلى القريةِ وعلى البلادِ قاطبةً من رأسِ النّاقورةِ شَمالاً وحتّى أُم رَشْرَش جنوباً تاركةً وراءَها دماراً ورُعْباً وأَنهاراً من دماءٍ. وسَقَطَتْ فِلَسْطينُ العَرَبِيَّةُ سَنَةَ 1948م .. وبَدَأَتِ الدَّولَةُ العِبْرِيَّةُ تُرَسِّخُ كِيانَها على أَنْقاضِها غَيرَ عابِئَةٍ بِقَرارِ التَّقْسيمِ الصّادِرِ عَنْ هَيئَةِ الأُمَمِ والّذي يَقْضي بِأَنْ تُصْبِحَ فِلَسْطينُ دَولَتَينِ لِشَعْبَينِ، ولكِنَّ الّذي حَدَثَ أَنْ شُرِّدَ شَعْبٌ وتَجَمَّعَ شَعْبٌ آخَرُ في دَولَةٍ اسْمُها إِسْرائيلُ!

قالتْ سليمةُ لزوجِها:

- كأَنَّكَ تنبَّأْتَ بما سيحدثُ فأَسْميتَ ابْنَنا شَدّاداً!

Scanned with CamScanner

أجابَها سالمٌ بعدمِ اكتراثٍ:

- تعتقدينَ أنَّ مجيئَهُ الى هذهِ الدُّنيا شُؤمٌ..! إنَّهُ هِبَةُ الله لنا، وما حدثَ هو من مُقدَّراتِـهِ، يمنحُ مَـنْ يـشاءُ ويمـنعُ عَمَّنْ يـشاءُ وسالمٌ لا ينطقُ بما لا يُؤمِنُ بهِ؛ ومُنْذُ أنْ أَخَذَ العِلْمَ عنْ فَقيهٍ عارِفٍ جاءَ القَرْيَةَ لِيُعَلِّمَ القِراءَةَ والكِتابَةَ لِمَنْ يُريدُ.. وسالِمٌ راغِبٌ في القِراءَةِ، ويَعْمَلُ على ذاتِهِ حَتّى أَخَذَ مِنْ أُمورِ الدّينِ والدُّنيا الكَثيرَ، وذلكَ مِمّا كانَ يقرؤُهُ من نُصوصٍ دينِيَّةٍ، ومِنْ كتبِ التّاريخِ والأدبِ وأخْبارِ الأَنْبِياءِ والأَولياءِ والرِّجالِ الصّالِحينَ..لَكِنَّهُ لِأَوَّلِ مرَّةٍ في حياتِهِ يُحسّ بِأَنَّهُ قالَ ما قالَ مع كثيرٍ من الشَّكِّ! فهو يُؤمنُ بِأَنَّ الله حَقٌّ وعَدْلٌ، وأَنَّهُ منبعُ الخيرِ .. ولا يُعْقَلُ أنْ يكونَ الّذي حدثَ من سفكِ دماءٍ وهدمِ دورٍ وتنكيلٍ وتشريدٍ من مُقدَّراتِهِ عَزَّ وعلا! وراحَتْ أسماءٌ مثلُ هربرت صموئيل وبلفور وهرتسل تُصَلْصِلُ في رأسِهِ وتحفِرُ أخاديدَ تصلُ الى قلبِهِ فَتُمَزِّقُ شَغافَهُ وتَستقرُّ في سُوَيدائِهِ جَمرةً يزدادُ أُوارُها كلَّما تذكَّرَ فظاعَةَ ما فعلوا بِشعبِهِ الأعزلِ إلّا من الإيمان بِفِلَسطينَ وبِأَنَّها لِأَهلِها رَغْمَ قِيامِ الدَّولَةِ العِبْرِيَّةِ، ومهما هُجِّروا أو ذُبِحوا ستظلُّ لِلْأَحْياءِ مِنْهُم . ولكِنَّهُ عندما دَهَمَتْهُ ذِكرى استسلامِ قريتِهِ برفْعِ علمٍ أبيضَ، وقَصْفِ القرى المُجاورةِ بِالمدافعِ الثَّقيلةِ والطّائِراتِ، بَصَقَ على بريطانيا العُظمى الّتي فَتَحَتْ مُعسكَراتِها لِتدريبِ العِصاباتِ الصُّهيونيّةِ وتسليحِها تحتَ سَمْعِ وبَصَرِ بَني عَربِ

الّذينَ أخذَ بَعْضُهُمْ دَوْرَ المُتآمِرِ، والبَعْضُ الآخَرُ دَورَ المُتَفَرِّجِ على ذَبْحِ الثَّورِ المَهْزومِ في حَلْبَةِ المُصارَعَةِ !!

وتَساءَلَ أمامَ العـارِفينَ بالأَمرِ عن سَبَبِ بقائِهم في قـريتِهم وقـد سَلِمتْ من الهدْمِ، قيلَ لَهُ:

- كانَ يكفي الغازينَ أنْ يسمعوا طَلقةً في قريةٍ، ولا يَهُمُّ سببُها، لكي يُسارعوا في هَدْمِها.

أمّا القُرى الّتي رفعَ مخاتيرُها ووُجَهاؤُها أعلامَ الاستسلامِ البَيضاءَ، ومِنْها قَريَتُهُ، فقد نَجَتْ مِنَ الهَدْمِ ولكِنَّها لمْ تَنْجُ من حُكْمِ عسكريٍّ كَريهٍ أذاقَهُم المُرَّ سنواتٍ وسنوات.

***

شدّادٌ في المدرسةِ !! كُلُّ شَيْءٍ يَسيرُعلى ما يُرامُ لولا لَقَـبُهُ (سباعي) الّذي كانوا يُنادونَهُ بِهِ والّذي كانَ بِسَبَبِهِ يَخوضُ مَعارِكَ قدْ تَنتَهي بما يُرْضيهِ، وأَحْياناً بِما لا يُرْضيهِ الى أنْ ناداهُ أَحَدُ المُدَرِّسينَ بِلَقَبِهِ، وشَكا أمرَ المُدَرِّسِ لِوالِدِهِ، فَضَمَّهُ اليهِ بِحَنانٍ، قالَ:

- ارْضَ بِالواقعِ يا بُنَيَّ !! أَنْتَ مَعْروفٌ في القَرْيَةِ بِلَقَبِكَ، والّذي يُناديكَ بِاسْمِكَ في حُضورِكَ يُناديكَ بِلَقَبِكَ في غِيابِكَ إلْعَنْها بِروحٍ رِياضِيَّةٍ .. إنْتَصِرْ عَلَيْهِمْ بِنَجاحِكَ!

Scanned with CamScanner

وهذا ما حَصَلَ فَقَدْ كانَ يتدرَّجُ من صفٍّ الى آخرَ بِنجاحٍ يُرضي مُعَلِّميهِ ويُرْضي والِديهِ فيكافِئُهُ والِدهُ بِأَنْ يأْخذَهُ معهُ حينَ يسافرُ الى عكّا، فيرى البحرَ والسّورَ، ويلعنُ (الجزّارَ) في سِرِّهِ لما سمعهُ عنهُ من قصصٍ مرعبةٍ من شيوخِ القريَةِ . أمّا انبساطُهُ الأكبَرُ فكانَ عندما كانا يَحْشُرانِ نَفْسَيهما في زَحْمةِ السّوقِ ويَرى بَسْطاتِ الباعةِ من خُضَرٍ وفاكهةٍ أو ملابسَ أو أسماكٍ بِأشكالٍ غيرِ مألوفةٍ لِناظِريهِ، أو حلوى يسيلُ لها لُعابُ المارّةِ .. وكانَ والِدُهُ يشتري قِطعةً واحدةً من البقلاوةِ ويناولُها لهُ..فيَسْأَلُهُ:

- وأنتَ يا أبي؟

فيُجيبُ:

- الكِبارُ لا يأْكلونَ في الشّارعِ!

وينظُرُ حولَهُ فيرى كِباراً كثيرينَ يأكلونَ، فيُدركُ بالفِطرةِ أنَّ والِدَهُ لم يشترِ قِطعةً لِنفسِهِ، ليسَ بُخلاً، بل توفيراً لِقِلَّةِ ما في اليدِ .

وَيَعودُ فَيَسْأَلُ:

- من أينَ يأْتي كلُّ هولاءِ النّاسِ يا أبَتِ؟

فيُجيبُ الوالِدُ:

- من جميعِ القُرى يا وَلَدي .. عكّا مدينةٌ عظيمةٌ .. فيها كُلُّ ما يحتاجُهُ النّاسُ .. عكّا هذهِ قاهرةُ نابليون!

ويصمتُ الطِّفلُ رَبكاً!

فقاهِرةُ نابليون هذهِ كانَتْ فوقَ مَداركِهِ ..

قالَ لِوالِدِهِ مَرَّةً:

- بَدَلَ أَنْ تَأْخُذَني الى عكّا اشْتَرِ لي ساعةً ..

وعندما اقتنعَ الوالدُ أَنَّ ابنَهُ يَقْرأُ السّاعةَ جيّداً اشْتَرى لهُ واحِدةً طارَ بها فَرَحًا، ودارَ على أترابِهِ تِرْباً تِرْباً يُريهم ساعَتَهُ المُذْهَبَةَ بِعقرَبينِ أسودينِ وثالِثٍ أحمرَ يدورُ ويدورُ مُسْرِعاً، ويَقولُ بِزُهُوٍ: إنَّها تُضيءُ في اللَّيلِ أيضاً! ..ولكِنَّ فرحتَهُ هذهِ لم تطُلْ، فقد اعتادَ أَنْ يضعَها في كوبٍ خاصٍّ في خِزانَةٍ لِحِفْظِ الأكْوابِ والفَناجينِ: قبلَ أَنْ ينامَ حِرصاً عليها، وفي يومٍ قامَ الى ساعتِهِ لِيلْبَسَها، فوجَدها تالِفةً! لَقد وضعَتْ والدتُهُ في نفسِ الكوبِ الّذي اعتادَ أَنْ يضعَ ساعَتَهُ فيهِ خَلْأً، دونَ أَنْ تَنْتَبِهَ الى أَنَّهُ الكوبُ نَفْسُهُ، فَدَسَّها فيهِ... ومَعَ أَنَّ والِدَهُ وَعَدَهُ بِساعةٍ أُخرى إلّا أَنَّهُ بكى وظَلَّ حانِقاً آسِفاً لِما حَدَثَ طيلَةَ أُسْبوعٍ كامِلٍ...

***

بَدَأَتْ الدَّولَةُ الجَديدَةُ تَبْني دَوائِرَها، وتَسِنُّ قَوانينَها على أَنَّها دَولَةٌ لِلْيَهودِ، فَما تَبَقّى مِنْ عَرَبٍ فِلَسْطينِيينَ يُشَكِّلونَ أَقَلِّيَّةً لا يُحْسَبُ لَهَا حِسابٌ! ولكِنَ الواقِعَ سَقَطَ ثَقيلاً على دَوْلَةٍ تُنادي بِالمُساواةِ بَينَ مُواطِنيها ويُمارِسُ حُكّامُها تَمْييزاً فاضِحاً على فِلَسْطينِيينَ صَمَدوا في قُراهُم.. وكَي يَمْسَحوا اسْمَ فِلَسطينَ مِنَ

Scanned with CamScanner

الذّاكِرَةِ كَما مَسَحوها عَنِ الأَطْلَسِ الجَغْرافِيِّ قالوا: عَرَبُ ثَماني وأَرْبَعينَ! وقالوا: عَرَبُ اسرائيلَ! وقالوا: عَرَبُ الدّاخِلِ .. وقالوا .. وقالوا .. ولكِنَّ الأَيّامَ قَطَعَتْ كُلَّ قَولٍ، فَضاقوا بِقَولِها وجَعَلوا القُرى العَرَبِيَّةَ الباقِيَةَ والعامِرَةَ بِأَهْلِها مَناطِقَ عَسْكَرِيَّةً.. قُرىً سَقَطَتْ سَهْواً من أَجِنْدَةِ الَّذين حَبَكوا شِباكَ المُؤامَرَةِ وقالوا: اليَهودُ شَعْبٌ بِلا أَرضٍ، وفِلَسْطينُ أَرْضٌ بِلا شَعْبٍ !!

هذا تاريخٌ كَتَبَهُ مُنْتَصِرونَ .. فَمَنْ سَيُلَقِّطُ تاريخَ المَهْزومينَ الَّذي تَساقَطَ من بَينِ أَنامِلِ المُنْتَصِرينَ بُرادَةً تَدوسُها الأَقْدامُ وتُكَنِسُ لِتُنْسى مَعَ الأَيّامِ .. فَفي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ هذِهِ البُرادَةِ حِكايَةٌ لَو جُمِعَتْ لَاسْتَحالَتْ فِلَسْطينُ بِرْكَةً مِنْ دُموعٍ ودَمٍ!

مَنْ سَيُسَجِّلُ حِكايَةَ فَلّاحٍ مُهَجَّرٍ يَمُرُّ في قَريَةٍ يَجُرُّ بَقَرَةً يَتَنازَلُ عَنْها مُقابِلَ عَشَرَةِ أَرْغِفَةٍ تُقيتُهُ لِيَصِلَ الى حُدودِ دَولَةٍ يَلْجَأُ إِلَيها، وتَتِمُّ الصَّفْقَةُ لِيَتْرُكَ بَقَرَتَهُ باكِياً قائِلاً:

- يا أَخي هذِهِ البَقَرَةُ أَمانَةٌ بَينَ يَدَيكَ إِنْ عُدْتُ اسْتَعَدْتُها، وإِنْ لَمْ أَعُدْ فهي لَكَ! ويَرُدُّ عَلَيهِ الآخَرُ ماسِحاً دَمْعَةً كاوِيَةً:

- عُدْ الى دارِكَ يا صاحِبي وانْتَظِرْ ما سَتَأْتي بِهِ الأَيّامُ ..

- أَعودُ الى أَينَ!؟ وهُمْ لَمْ يُبْقوا في القَرْيَةِ كُلِّها حَجَراً على حَجَرٍ!

قالَ هذا وقَبَّلَ بَقَرَتَهُ بَينَ عَيْنَيها السَّوداوَينِ الواسِعَتَينِ ومَشى، وظَلَّتْ هي تَتْبَعُهُ بِناظِرَيها كَأَنَّها تَتَساءَلُ بَينَها وبَينَ نَفْسِها لِماذا تَرَكَني هُنا مَعَ أُناسٍ لا أَعْرِفُهُمْ، ورَحَلَ بِدوني، وأَنا شَريكَتُهُ في الحَقْلِ، وفي البَيتِ، وعلى البَيدَرِ!

ومَنْ سَيَكْتُبُ حِكايَةَ امْرَأَةٍ يَشُدُّها زَوجُها مِنْ شَعْرِها، ويَجُرُّها الى اللُّجوءِ جَرّاً وهي لا تُريدُ أَنْ تَتْرُكَ بَيتَها.. أَو كَومَةَ أحجارٍ كانَتْ بَيتَها! أَيُّ حُزْنٍ تَرَكَتْهُ هذهِ المَرْأَةُ وهي تَصيحُ:

- اتْرُكْني.... !! أَعيشُ وأَموتُ شَحاذَةً في بَلَدي ولا أَعيشُ أَميرَةً في بِلادِ الآخَرينَ !! ...

ومَنْ سَيَكْتُبُ مَأْساةَ شَيخٍ عاجِزٍ قالَ لِأَبْنائِهِ:

- اتْرُكوني هُنا واسْلَموا بِجُلودِكُمْ !!

ويَتْرُكونَهُ صاغِرينَ، وانْتَظَرَ وانْتَظَرَ حتّى يَعودَ مَعَ العائِدينَ... فَما عادَ أَحَدٌ، وماتَ وهو يُوصِي الحاضِرينَ:

- بِرَبِّكُمْ! قولوا لِأَبْنائي عِنْدَما يَعودونَ أَنْ يَحْمِلوا رُفاتي الى قَرْيَتي لِأُدْفَنَ بَينَ آبائي وأَجْدادي! فَالغُرْبَةُ قاسِيَةٌ على الأَحياءِ وتَكونُ أَكْثَرَ قَسْوَةً على الأَمواتِ !! بِرَبِّكُمْ لا تَنْسَوا ! قولوا لَهُمْ !! قُولوا لَهُمْ ... !!

قالَ هذا وَلَمْ يَدُرْ بِفِكْرِهِ أَنَّ حَقَّ العَودَةِ مَرْفوضٌ.. فلا عَودَةَ لِلْأَحياءِ، لا وَلا لِلْأَمواتِ!

***

كانَتْ مَعاهِدُ التَّدريسِ آنَذاكَ مُوَزَّعةً على النَّحو التّالي: المدارسُ الابْتدائِيَّةُ يدرسُ الطّلّابُ فيها حتّى الصَّفِّ الثّامِنِ، والدِّراسَةُ فيها مَجّانِيَّةٌ، والمدارسُ الثّانَوِيَّةُ وتشملُ الصّفوفَ

Scanned with CamScanner

التّاسعةَ حتّى الصّفوفَ الثّانيةَ عشرةَ، وهي بِأجرٍ يَعْجَزُ عن دفعهِ مُعظَمُ النّاسِ لِفقْرِهم، ولذلكَ كانوا يَكتفونَ لِأبنائِهم بشهادةِ الصّفِّ الثّامنِ وهي شهادةٌ مُعْتَرفٌ بها كشهادةٍ تُؤَهِّلُهُم لِخَوضِ ظُلُماتِ الحَياةِ كَشَبابٍ غيرِ أُمّيّينَ .. أمّا التّعَلُّمُ في الجامِعاتِ وفي المعاهِدِ العُليا، فكانَ حُلُماً لا يَقْدرُ على تَحقيقِهِ سوى أبناءِ الأَغْنياءِ .

أنهى شدّادٌ المَرْحَلَةَ الابْتِدائِيّةَ بِنَجاحٍ مَلْحُوظٍ، فقالَ له والدُهُ:

- أنا فخورٌ بكَ يــا بُنَيّ ! لكنّني لا أَقْــدرُ على تغطيةِ تكـاليفِ الدّراسَةِ الثّانَويّةِ؛ إنّها ثقيلةٌ تقصِمُ الظَّهْرَ! لِأَوّلِ مَرّةٍ يَشْتَمُّ رائِحَةَ العَجْزِ تَعْبَقُ في الجَوِّ حَولَه، قالَ:

- كما ترى يا والدي .. المُهِمُّ أَنّني أقرأُ وأكتبُ بإتقان ..

عَقّبَ الوالدُ:

- تستطيعُ أَنْ تُعَوِّضَ دِراسَتَكَ بما سَتَقْرؤُهُ من كُتُبٍ .. صادِقِ الكتابَ يا بُنَيَّ فهو خيرُ صديقٍ .

الآنَ وقد تحرّرَ من قيودِ الدّراسةِ بدأ يبحثُ عن عملٍ يَتَلاءَمُ مَعَ سِنِّهِ هذهِ الّتي لا تَتَعَدّى الخامِسَةَ عَشْرَةَ، فَعَمِلَ راعِيَ جِدْيانِ سَنَةً، بَعْدَها راحَ يَتَنَقَّلُ مِنْ وَرْشَةٍ الى أُخرى كَصَبِيٍّ مُساعِدٍ لِصاحِبِها إنْ كانَ حَدّاداً أو نَجّاراً أو مُبَيِّضَ نُحاسٍ أو كَلّاساً .. فَاكْتَسَبَ مِنْ كُلِّ صَنْعَةٍ شَيئاً ..

وتَمُرُّ الأيّامُ .. وسُرعانَ ما صَلُبَ عودُ سباعي إذْ أَصْبَحَ شابّاً وَسيماً، قَوِيَّ البُنْيَةِ، وعِنْدَما تَقَدَّمَ بِطَلَبٍ الى المُخْتارِ وَشُيوخِ القَرْيَةِ لِيَعْمَلَ ناطوراً قَبِلوا طَلَبَهُ بِمَحَبَّةٍ ...

والنّاطورُ في القَريةِ، هو حارسُ الكُرومِ وحُقولِ المَزْروعاتِ من قَمْحٍ وعَدَسٍ وحِمَّصٍ وشَعيرٍ وكِرْسَنَّةٍ، يَحْرُسُها من يدِ الإنسانِ وفَمِ الحيوانِ .. وانتشرَ الخبرُ في القريةِ: - مِسْكين يا سباعي .. بِدايَتُها شَطارَة .. وآخِرَتُها ناطور في القريةِ !!

لَمْ يُخطئْ والدهُ بشأنِ الكتابِ .. صادقَهُ سباعي ففتحَ له أبواباً على الأدب والعِلم دخلَها من أوسعِ أبوابِها الى عوالمَ حَدائِقُها بَنَفْسَجٌ وأُقْحُوان .. وبَساتينُها سَفَرْجَلٌ ورُمّان .. أمّا فُصولُها فَربيعٌ دائِمٌ .... وقَلَّما شُوهدَ من دونِ كتابٍ؛ وانتَشَرَ خَبَرٌ يقولُ: سباعي ابن سالم وسليمة سوفَ يصبحُ مجنوناً إذا لم يكن قد جُنَّ! وهنالكَ مَنْ قالَ: والدُهُ من قبلِهِ بنِصْفِ عقلٍ لكَثْرةِ قراءَتِه .. اللّه يكون بِعونِ سليمة! ضربتان على الرّأسِ تُؤْلِمان!

وسَليمة راضِيةٌ بِحياتِها، لا تُسْمَعُ إلّا شاكرةً حامدةً، فقد وهبها الله زَوجاً عَطوفاً رَؤُوفاً غيرَ مُقصِّرٍ بواجباتِهِ تجاهَ البيتِ .. ووهَبَها أيضاً ابناً تامَّ الأوصافِ مِطْواعاً .. صَحيحٌ ما يُعْرَفُ عن زَوجِها بِأَنَّهُ مِكْسالٌ لكنَّهُ بالنَسبَةِ لها تَقِيٌّ يخافُ الله، وما من مَرّةٍ شَتَمَها أو ضَرَبَها .. تقولُ هذا لِنِساءِ القَرْيَةِ فيَضْحَكْنَ غيرَ مُصَدِّقاتٍ، وتُقْسِمُ لَهُنَّ بِحَياةِ ابْنَتِها سباعي وسامح وبِنْتَيها سُعْدى وسُعاد، فَتَغْضَبُ جارَتُها أُمُّ زُهدي وتَقولُ: لو حَلَفْتِ على

Scanned with CamScanner

جميعِ الأَنْبياءِ لَنْ نُصَدِّقَكِ فما مِن رَجُلٍ لا يَضْرِبُ زَوجَتَهُ، إلّا إذا كانَتْ هي مِنْ فَوق وهو من تَحت ....

وأُمُّ زُهْدي هَذِهِ رَأْسُمالِها ما وَهَبَهُ الله لَها مِنْ خِفَّةِ ظِلٍّ، وقَدٍّ جَميلٍ، وَمَسْحَةٍ مِنَ الجَمالِ جَعَلَتْها مِنَ المَحْسوباتِ على المَليحاتِ في القَرْيَةِ.. لكِنَّها كانَتْ مَرْهوبَةَ الجانِبِ مِنَ الرِّجالِ قَبْلَ النِّساءِ لِصَراحَتِها الّتي قَدْ تَصِلُ الى حَدِّ الوَقاحَةِ أحْياناً! أحَبَّتِ العَيشَ في المَدينَةِ وتَزَوَّجَتْ في عَكّا مِنْ صَيّادِ سَمَكٍ،وعاشَتْ مَعَ زَوجِها، وأنْجَبَتْ مِنهُ ابْنَها زُهْدي، وظَلَّتْ على ذِمَّتِهِ الى أنْ غَرِقَ في البَحْرِ وماتَ رَغْمَ كَونِهِ سَبّاحاً ماهِراً. ومِنْ هُنا، وبَعْدَ أنْ ذاقَتْ طَعْمَ السَّعادَةِ في سَنَواتِ زَواجِها الأوَّلِ بَدَأَتْ رِحْلَتُها مَعَ سُوءِ الحَظِّ. فَعادَتْ الى القَرْيَةِ بِدونِ ابْنِها زُهْدي الّذي ظَلَّ مَعَ جَدَّيهِ العَكّاوِيَّينِ لِيَعيشَ مَعَهُما؛ ولَمْ تَلْبَثْ أنْ تَزَوَّجَتْ وتَطَلَّقَتْ، وتَزَوَّجَتْ ودَفَنَتْ الى أنْ أقْسَمَتْ أنَّها لَنْ تَتَزَوَّجَ إلّا إذا جاءَ عِزْرائيلُ شَخْصِيّاً وَطَلَبَها لِلزَّواج. فَتَتَزَوَّجُهُ كَي تُلْحِقَهُ لِأَزْواجِها الّذينَ دَفَنَتْهُمْ وتُريحَ العالَمَ مِنْهُ!!

ما أجْمَلَ لَيالي الجَليلِ!! خاصَّةً الصّافِيَةَ مِنْها حينَ يَسْقُطُ النَّدى فَيَرْحَضُ الأرضَ وما عليها مِنْ نَباتٍ يَشْرَبُ بَعْدَ أنْ يكونَ قَدِ ارتَوى، مُنْتَظِراً الشَّمْسَ كي يَعُبَّ مِنْ ضَوئِها ما يُعينُهُ على مُواصَلَةِ الحَياةِ! وكانَ سباعي يَعُبُّ من هذا الجمالِ الّذي أسْبَغَهُ الله على هذِهِ البُقْعَةِ مِنَ الأرْضِ. خُضْرَةٌ تَشوبُها ألْوانُ قَوسِ قُزَحٍ بِتَحَيُّزٍ واضِحٍ للأصْفَرِ، تَمْتَدُّ مِنْ حَيثُ يَقِفُ فَتَصِلُ زُرْقَةَ الأُفُقِ .. وعِنْدَما كانَ يَنْتَشي كانَ يَوَدُّ لَو يَصْرُخُ: إنَّها لي! هذهِ البِلادُ لي ....! ولَكِنَّهُ يَكْتَفي بِأنْ يَهْمِسَها هَمْساً ثُمَّ يَضْرِبُ الأرضَ بِحِذائِهِ ذي السّاقِ العالي الواصِلِ الى ما تَحْتَ الرُّكْبَتَينِ كَأنَّهُ يُؤَكِّدُ ما قالَ .. وانْتَقى رُجْمَةً وقَفَ عَلَيها يَنْظُرُ بِعَيني الحارِسِ الأمينِ .. غَيرَ آبِهٍ بِالأفاعي الرّاقِدَةِ الآنَ في جُحورِها، وعَمّا قَليلٍ سَوفَ تُشْرِقُ الشَّمْسُ وتَخْرُجُ باحِثَةً لَها عن صَيدٍ سَمينٍ .. مُعْتَمِداً على بِنْطالٍ سَميكٍ يَلْبَسُهُ، وعلى حِذائِهِ ذي السّاقِ. صَحيحٌ إنَّهُ كانَ قَدِ اشْتَراهُ مُسْتَعْمَلاً بِشِقَّينِ مُخْتَلِفَينِ مِنْ بائِعٍ مُتَجَوِّلٍ إلّا أنَّهُ كانَ في حالَةٍ جَيِّدَةٍ؛ والباعَةُ المُتَجَوِّلونَ يَنْتَشِرونَ في القُرى، ويَبيعونَ كُلَّ ما تَطالُهُ أيادِيَهُمْ مِنْ حاجاتٍ مُسْتَعْمَلَةٍ لكِنَّها مازالَتْ قابِلَةً لِلبَيعِ، بِطُرُقٍ غَريبَةٍ، أغْرَبُها بَيعُ الأحْذِيَةِ. فَكانَ البائِعُ يَأتي بِأكياسٍ مَمْلوءَةٍ أحْذِيَةً مِنْ كُلِّ مَقاسٍ وشَكْلٍ وجِنْسٍ ولَونٍ، يُفْرِغُها كَومَةً واحِدَةً أمامَ الشّارينَ، فَإذا أعْجَبَ أحَدَهُمْ شِقُّ حِذاءٍ يَأخُذُهُ

Scanned with CamScanner

ويَبْدَأُ بِالبَحْثِ عَنِ الشِّقِّ الآخَرِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ قَرَنَهُ بِالشِّقِّ الأَكْثَرِ شَبَهاً لَهُ! وهذا ما حَدَثَ لِسْباعي عِنْدَما اشْتَرى حِذاءَهُ الَّذي يَنْتَعِلُهُ بِشِقَّينِ مُخْتَلِفَينِ غَيرَ آبِهٍ لِسُخْرِيَةِ بَعْضِ الأَقارِبِ الموسِرينَ ما دامَ يَقيهِ مِنْ لَدَغاتِ الأَفاعي... كُلُّ هذا الحَذَرِ تَعَلَّمَهُ مِمّا سَمِعَهُ عن كامِلِ العَلي وما حَدَثَ لَهُ، ولُبْسُهُ لِلشِّروالِ في الحقولِ كانَ سَبَباً في هَلاكِهِ.. ورُغْمَ قِدَمِ الحادِثَةِ إلّا أَنَّ أَهْلَ القَرْيَةِ لا يَزالونَ يَرْوونَها وكَأَنَّها حَدَثَتِ البارِحَةَ .. والسِّرْوالُ أو الشِّرْوالُ (السَّراويل) لِباسٌ، فارِسِيُّ الأَصْلِ، يَسْتُرُ النِّصْفَ الأَسْفَلَ مِنَ الجِسْمِ، ولِلسُّرْعَةِ في عَمَلِيَّةِ التَّبَوُّلِ جَعَلوا لَهُ فُتْحَةً في الجُزْءِ المُتَدَلّي بَينَ السّاقَينِ، فَعِنْدَما قَرْفَصَ كامِلُ العَلي فَوقَ رُجْمَةٍ لَمْ يَأْخُذْ فُضْلَةَ الشِّرْوالِ في حِضْنِهِ، إِذْ لَمْ يَخْطُرْ على بالِهِ أَنْ تَخْرُجَ رَقْطاءُ مِنَ الرُّجْمَةِ وتَدْخُلَ فُتْحَةَ الشِّرْوالِ وتُقَرْصَ نَفْسَها هُناكَ، ولَمْ يَدُرْ بِفِكْرِهِ أيضاً أَنَّهُ عِنْدَما سَيَنْهَضُ سوفَ يُلْدَغُ لَدْغَةً تَجْعَلُهُ يُطْبِقُ أَجْفانَهُ على مَشْهَدٍ ما أُطْبِقَتْ علَيهِ جُفونٌ مِنْ قَبْلُ وَ... يَموت.

***

وتَمُرُّ الأَيّامُ على سباعي، فَيَصْلُبُ عودُهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ! وقد تَعدّى العشرين .. وكُلَّما وَقَعَتْ عَينا أُمِّهِ عليهِ، ورَوَّتْهُما مِمّا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ رَشاقَةٍ وَوسامَةٍ قالَتْ :

- الحَمْدُ لِلهِ! لَمْ يَرْزُقْنا مالاً ولكِنَّهُ عَوَّضَنا عَنِ المالِ بِكَ!

وتُتابِعُ :

- وبِأَخيكَ سامِحٍ وأُخْتَيكَ سُعْدى وسُعادَ ..

وُلِدَتْ سُعْدى بَعْدَ وِلادَةِ سباعي بِعامَينِ، وهي لا تَقِلُّ جمالاً عَن والِدَتِها بِبَشَرَتِها الحِنْطِيَةِ وبِعَينَيها السَّوداوينِ. والِدَتُها الَّتي كانَتْ في صِباها مَحَطَّ أَنْظارِ شَبابِ القَرْيَةِ، ولَكِنَّها فَضَّلَتْ سالِماً عَلَيهِمْ جَميعاً بِما فيهِم ابنُ شَيخِ عائِلَةِ السَّعايدَةِ، أَكْبَرِ وأَغْنى عائِلَةٍ في القَرْيَةِ .. يومَها قالَتْ لَها أُمُّها :

- أَنْتِ غاوِيَةُ فَقْرٍ..

فَأَجابَتْها سَليمَةُ:

- بَلْ أَنا غاوِيَةُ حَياةٍ كَريمَةٍ .. أُحِبُّ أَنْ أَعيشَ مَعَ رَجُلٍ يَخافُ اللهَ إذا أَحَبَّني أَكْرَمَني، وإذا كَرِهَني لا يَظْلِمُني ..وسالِمٌ يَخافُ اللهَ!

وتُقابِلُ أُمُّها جِدِّيَّتَها هذِهِ بِسُخْرِيَةٍ قائِلَةً:

- مِنْ أَينَ لَكِ هَذِهِ الفَصاحَةُ يا مَقْصوفَةَ الرَّقَبَةِ! ... عِشْنا وشُفْنا!

لَمْ تَدْخُلْ سَليمَةُ مَدْرَسَةً سوى مَدْرَسَةِ الحَياةِ، ورَجاحَةُ عَقْلِها جَعَلَتْها تَحْفَظُ كُلَّ ما تَسْمَعُهُ، وهذِهِ حِكْمَةٌ لا تَذْكُرُ مِمَّنْ سَمِعَتْها فَخَزَنَتْها في ذاكِرَتِها لِتَقولَها في مَقامِها، وذا مَقامُها: قالَتْها تَدْفَعُ عَنْها سَطْوَةَ أُمِّها وهي لا تَدْري أَنَّ قائِلَها هو سَيِّدُنا الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللّهُ وَجْهَهما .

Scanned with CamScanner

بَعْدَ سُعْدى جاءَتْ سُعادُ فَكانَتْ صورَةً طِبْقَ الأَصلِ عَنْ والِدَتِها وعَنْ اختِها سُعْدى بِقَدِّها المُتَناسِقِ، وبِبَشَرَتِها الحِنْطِيَّةِ؛ تَخْتَلِفُ عَنْهُما بِعَينَينِ خَضْراوَينِ مِمّا زادَها جَمالاً.. أَمّا سامِحٌ وهو الأَصْغَرُ في العائِلَةِ فكانَ أَقْرَبَ الى أَخْوالِهِ الثَّلاثَةِ الّذينَ لَهُم قَسامَةُ والِدَتِهِ مَعَ مَيلٍ الى حِدَّةِ الطَّبْعِ، أما هو فَقَدْ أَكْرَمَهُ الله وحَباهُ طَبْعاً هادِئاً كَطَبْعِ والِدِهِ، ونَشاطاً كَنَشاطِ والِدَتِهِ .

بَلَغَ سباعي مَبْلَغَ الشَّبابِ، وأَصْبَحَ رَجُلاً بِما تَحْمِلُهُ هذهِ الكَلِمَةُ من مَعْنى وهو لاهٍ لا يَعْمَلُ لِأَيّامِهِ حِساباً .. كانَ كُلَّما وقَفَ أَمامَ المِرْآةِ لِيَحْلِقَ شَعْرَ لَحْيَيهِ، تَذَكَّرَ أَوَّلَ مَرَّةٍ حَلَقَ الشُّعَيراتِ المُتَناثِرَةَ في وَجْهِهِ بِموسى والِدِهِ سِرّاً ! ويَذْكُرُ كيفَ بَكى يَومَها وهو لا يَفْقَهُ سَبَبَ بُكائِهِ هذا! رُبَّما لِطُفولَةٍ انْتَهَتْ قَبْلَ أَوانِها وكانَ يُريدُها أَنْ تَطولَ. قيلَ لِأَبي زَيدٍ الهِلالِيِّ:

- ما أَسْعَدُ أَيّامِكَ؟

قالَ:

- يَومَ كُنْتُ أُعَفِّرُ كَالدَّجاجَةِ على كومَةِ تُرابٍ ..!

حَتّى مَرْحَلَةُ البُلوغِ فَقَدْ عاشَها بلا قَفَزاتٍ أو شَطَحاتٍ بِالرَّغْمِ مِمّا كانَ يَسْمَعُهُ مَنَ الكِبارِ فَيَقولونَ: هذا جيلٌ يَأْكُلُ لا يَشْبَع ..أَطْرَشُ لا يَسْمَع! وهُنا فَقَطْ صَدَّقَ ما كانَ قَدْ قَرَأَهُ في كِتابٍ، رُبَّما لِ (سلامة موسى) بِأَنَّ لِلْإِنسانِ عُمْرَينِ: عُمْراً بَيولوجِيّاً وآخَرَ اجْتِماعِيّاً؛ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ مُعْجَباً: صَحيحٌ أنا دونَ العِشْرينَ،

ولكِنّي أَشْعُرُ أَنّي فَوقَ الثَّلاثينَ!! ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ لامَ نَفْسَهُ على مَديحَهِ لِذاتِهِ، فَمادِحُ نَفْسِهِ مَذْمومٌ!

قِلَّةٌ هُمْ أُولَئِكَ الّذينَ بِعُمْرٍ سباعي ويَحْكُمونَ على الأُمورِ بِعَواقِبِها، فَيَجْتَنِبونَ السَّوءَةَ قَبْلَ وقوعِها ..... طَلَعَتْ عَلَيهِ (رَيحانَةُ) كَجِنِّيَّةٍ مِنْ بَينِ الأَحْراشِ .. رَيحانَةُ تِلْكَ المُهْرَةُ الشَّموسُ الَّتي تَرْفُضُ أَنْ يَعْتَلِها راكِبٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ فارِسَ الفُرسانِ، وابْنُ عَمِّها القَمِيءُ لَيسَ مِنْ مَزاويجِها، لِكِنَّهُمْ زَوَّجوها لَهُ، فالبِنْتُ لِابْنِ عَمِّها حَتّى لو كانَ أَعْوَرَ مِنَ الثِّنْتَينِ! قالَتْ :

- أَنْتَظِرُهُ، تَقْصِدُ زَوجَها، فَقَدْ نَسِيَ المِنْجَلَ ورَجَعَ الى البَيتِ لِيُحْضِرَهُ، فَجِئْتُ أَسْتَأْنِسُ بِكَ ..

نَظَرَ إِلَيها فَلَمْ يَرَ خَوفاً في عَينَيها، ورَأى رَغْبَةً تُنْسي العابِدَ صَلاتَهُ .. رَغْبَةَ الأُنثى لِلذَّكَرِ! قالَتْ وقَدْ شَجَّعَها صَمْتُهُ ونَظْرَتُهُ المُشْبَعَةُ بِالرَّغْبَةِ - تَنْظُرُ إِلَيَّ كَأَنَّكَ تَشْتَهيني

قالَ مَبْهوراً بِجُرْأَتِها:

- أَنتِ بِمَفاتِنِكِ هَذِهِ تَجْعَلينَ الطَّواشِيَّ فَحْلاً..وتُحْيينَ العِظامَ وهي رَميم!

كانَتْ قَدْ رَوَّتْ ناظِرَيها مِنْ فُحولَةٍ مَحْرومَةٍ مِنْها، قالَتْ:

- أَنْتَ فارِسي الّذي أُسَلِّمُ لَهُ قيادي! امْتَطِ صَهْوَةَ مُهْرَتِكَ ..

وتَمَدَّدَتْ على العُشْبِ الأَخْضَرِ الكَثيفِ بِقَدِّها المُتَناسِقِ الرَّهيفِ ورَفَعَتْ أَطرافَ فُسْتانِها فانْكَشَفَتْ لَهُ كُلُّ كُنوزِ الأَرْضِ من دونِ مِصْباحِ عَلاءِ الدّين .. وظَلَّ فُسْتانُها يَنْقادُ لِكَفَّيها الرُّخامِيَّتينِ حَتّى

Scanned with CamScanner

وصَلَ الى ما فَوقَ الخاصِرَتَينِ فَبانَ البَطْنُ الأَخْمَصُ كَأَنَّهُ دَوائِرُ من بُرونزَ تَلْتَقي في سُرَّةٍ كَزِهْرَةِ قَرَنْفُلٍ وَرْدِيَّةٍ هي مِسْكُ الخِتامِ، وانْزِلَقَتْ كَفّاها لِتُنْزِلَ ثُبّانَها قَليلاً قَليلاً، فَبانَتْ طَلائِعُ شَعْرِ العانَةِ كَعُشْبٍ طَرِيءٍ بَلَّلَهُ الرِّهام.. وفَجْأَةً قَفَزَتْ صورَةُ والِدِهِ أَمامَهُ بِكامِلِ وَقارِهِ، وشَعَّتْ في ذاكِرَتِهِ وصِيَّتُهُ لَهُ حينَ أَصْبَحَ لَهُ ما لِلرِّجالِ: - إِيّاكَ والغِوايَةَ! أَغْراضُ النّاسِ ليسَتْ لُعْبَةً!

فَانْكَمَشَتْ رَغْبَتُهُ كَما يَنْكَمِشُ ثُعْبانٌ في جُحْرِهِ .. وتَسَمَّرَ في مَكانِهِ كَما يَتَسَمَّرُ الفاشِلُ في الامْتِحانِ أَمامَ أُسْتاذِهِ .. قالَ بِشَفَتَينِ مُتَهَدِّلَتَينِ راجِفَتَينِ:

- آسِفٌ! لا أَسْتَطيعُ..!

وقَبْلَ أَنْ تَمَّحي صورَةُ والِدِهِ من خَيالِهِ فَيَضْعُفَ ، تَراجَعَ قَليلاً الى الوَراءِ ثُمَّ راحَ يَقْطَعُ الحُقولَ قَفْزاً لَعَلَّهُ يُطْفِئُ جَمْراً يَأْكُلُ أَحْشاءَهُ .. كانَ يَرْكُضُ وصَوتُها يُلاحِقُهُ:

- آسِف!..لا تَسْتَطيعُ...! يا خُنْثى ! يا طَواشِيّ! يا ابْنَ السِّتّينَ كَلْباً ...

وتَمُرُّ الأَيّامُ، والصَّغيرُ يَكْبَرُ، والكَبيرُ يَهْرَمُ .. وكانَ كُلَّما رَآها تَمَنّى لَو أَنَّ ما فَعَلَهُ لَمْ يَجْرَحْ كِبْرِياءَها فَتَصْفَحْ عَنْهُ وكانَتْ هي كُلَّما تَحَدَّثَتِ النِّسْوَةُ عَنِ الرِّجالِ قالَتْ :

- سباعي ابنُ سالِم وسَليمة أَشْرَفُ رَجُلٍ في القَرْيَةِ .

وكانَ هذا يُرْبِحُهُ.....

***

كانَ حُبُّ سباعي لِلطَّبيعَةِ لا يوصَفُ بِكَلامٍ، فَهوَ أَحاسيسُ لا يَتَّسِعُ لَها شِعْرٌ أَو نَثْرٌ .. وكَمْ كانَ يَتَوَحَّدُ مَعَ هذا الكَونِ فَيَنْتابُهُ شُعورٌ بِأَنَّهُ صَديقُ العُشْبَةِ والزَّهْرَةِ والشَّجَرَةِ والحَجَرِ والنُّجومِ والشَّمْسِ والقَمَرِ وما يَطيرُ في السَّماءِ وما يَدِبُّ على الأَرْضِ .. حَتّى الزَّحّافاتُ كالعَناكِبِ والعَقارِبِ والأَفاعي الّتي يَحْسِبُ لَها كُلَّ حِسابٍ كانَ لَها مِنْ هذا التَّوَحُّدِ نَصيبٌ.. لكِنَّهُ عِنْدَما كانَ يَصِلُ الى الإِنْسانِ، كانَ يُحِسُّ بِأَنَّ روحَهُ المُسالِمَةَ مَعَ هذا الكونِ تَنْفُرُ كَيَمامَةٍ أَجْفَلَتْها طَلْقَةُ صَيّادٍ، وتَعْتَريهِ الحَيْرَةُ تِجاهَ هذا المَخْلوقِ الَّذي مَيَّزَهُ اللهُ عن باقي مَخْلوقاتِهِ بِالعَقْلِ .. أَجَلْ! الإِنْسانُ ...هذا اللُّغْزُ الَّذي لَيسَ لَهُ حَلٌّ .. لَقَدْ قالَ سُقْراطُ الحَكيم قَبْلَ آلافِ السِّنينَ (إِعْرِفْ نَفْسَكَ) ولِلْآنَ تَرانا عاجِزينَ عَنْ مَعْرِفَةِ أَنْفُسِنا! نَمْلِكُ الشَّيءَ وعَيْنُنا على شَيءٍ الآخَرِ، وإِذا وَهَبَ اللهُ أَحَدَنا قُوَّةً اسْتَعْدى بِها على الآخَرينَ، وأَمّا الطّامَّةُ الكُبْرى فهي إِذا وَهَبَ اللّهُ شَخْصاً عَقْلاً خَلّاقاً، وأَوْجَدَ لَنا الدَّواءَ لِلشِّفاءِ، أَوجَدَ آخَرُ بِالمُقابِلِ كُلَّ ما يَجْلُبُ الأَدواءَ ..... وهُنا وجَدَ سباعي أَنَّ رَأْسَهُ يَكادُ يَنْفَجِرُ، وتَمَنّى لو أَنَّهُ لا يَقْرأُ ولا يَكْتُبُ لَكانَ عاشَ حَياتَهُ قانِعاً راضِياً بِأَحْلامِهِ الصَّغيرَةِ الَّتي قَدْ لا تَتَعَدّى اللُّقْمَةَ الشَّريفَةَ والهِدْمَةَ النَّظيفَةَ والسُّتْرَةَ في بَيتٍ مُسَيَّجٍ بِالكَرامَةِ، ولا يَهُمُّ بَعْدَها لو كانَ هذا البَيتُ مِنْ طينٍ فَسَيَظَلُّ لِلْإِنْسانِ كَما غَنَّتْ لَهُ الخالِدَةُ صَباح، بِصَوتِها الطَّروبِ:

Scanned with CamScanner

- يا بَيتي .. يا بوَيتاتي يا مُسَيِّرلي عيوباتي
فيك خلقتْ، وفيكْ ربيتْ وفيك بْقَضّي حَياتي!
وبِسْتَدْرِكْ سباعي فَيقولْ: اللّهُمَّ لا اعتِراضَ...!

وبَتَذَكَّرْ صَفْوانَ الأَجْدَبَ فَبْتَلَسِمْ .. أَمْنِيَّتُهُ تِلكَ يَتَمَنّاها في لَحْظَةِ غَضَبٍ .. لَحْظَةِ يَأسٍ مِنْ بِناءِ إنْسانٍ أَكْثَرَ رُقِيّاً، إذْ ما قيمَةُ الإنْسانِ بِدونِ عَقْلٍ، وما قيمَةُ العَقْلِ إذا تَوَقَّفَ عَنِ التَّفْكيرِ!؟ وصَفْوانُ الأَجْدَبُ هذا قَدْ أَصْبَحَ شابّاً ولا يَزالُ يَرْكَبُ عودَ قَصَبٍ ويَجوبُ طُرُقاتِ القَرْيَةِ، فَإذا سُئِلَ ما هذا؟ قالَ:

- أَرْكَبُ الأَبْجَرَ حِصانَ عَنْتَر..
- والى أينَ؟
- الى قِتالِ بَني ذُبْيان !!

مِسكينٌ صَفْوانُ هذا فَقَدْ وُلِدَ وتَخَطّى سَنَواتِ عُمْرِهِ الخَمْسَ الأُولى سَليمَ الجِسْمِ والعَقْلِ، الى أنْ سَقَطَتْ عَليهِ أَفْعى رَقْطاءُ مِنْ سَقْفِ بَيتِهِمُ التُّرابِيِّ وهو نائِمٌ، فَجُنَّ.. وقيلَ مَرَّ بِجانِبِ مَقْبَرَةِ القَرْيَةِ، وكانَ الظَّلامُ قَدْ حَلَّ، وفَجْأَةً طَلَعَ عَليهِ مِنْ بَينِ القُبورِ شَيخٌ، فَظَنَّهُ شَيخَ القُبورِ الّذي يُخيفونَ الأَطْفالَ بِهِ، وقيلَ كانَتْ أُمُّهُ تُنيمَهُ وهو رَضيعٌ قَريباً جِدّاً مِنْ مَوقِدِ النّارِ في فَصْلِ الشِّتاءِ خَوفاً عَلَيهِ مِنْ قَرْسِ البَرْدِ، فَماعَ مُخُّهُ فَانْخَبَلَ، أَمّا الرِّوايَةُ الأَقْرَبُ الى التَّصْديقِ فَهي أَنَّهُ مَرِضَ مَرَضاً شَديداً لَمْ يَعْرِفِ الأَطِبّاءُ آنَذاكَ سَبَبَهُ، بَعْدَها أُصيبَ بِنِشافٍ في قِشْرَةِ الدِّماغِ، وأَصْبَحَ على حالِهِ هذِهِ..

3

رَضِيَ سباعي بِعَمَلِهِ كَناطورٍ لِلْقَرْيَةِ لِأَسْبابٍ أَوَّلُها أَنَهُ كانَ صَغيرَ السِّنِّ عِنْدَما بَدَأَ عَمَلَهُ .. وثانيها، وهذا الأَهَمُّ، أَحَبَّ رَغْمَ حَداثَةِ سِنِّهِ أَلّا يكونَ عالَةً على والِدِهِ، بَلْ يكونَ عَوناً لَهُ في إعالَةِ العائِلَةِ .. والآنَ وقَدْ اخشَوشَنَ وصَلُبَ عودُهُ بَدَأَ يَبْحَثُ لَهُ عَنْ عَمَلٍ أَكْثَرَ مُلاءَمَةً لِسِنِّهِ خاصَّةً وأَنَّ عَمَلَ النّاطورِ يَبْدَأُ مَعَ بِدايَةِ الرَّبيعِ ويَنْتَهي بِانْتِهاءِ تَشارينَ .. هذا يَعْني أَنَّهُ مُتَبَطِّلٌ في أَشْهُرِ الشِّتاءِ .. ولكِنَّ الدّافِعَ الأَقوى الّذي كانَ يَلُزُّهُ لِيَتْرُكَ عَمَلَهُ هُوَ فَتْحُ أَبْوابِ العَمَلِ بِالأُجْرَةِ في المَصانِعِ والشَّرِكاتِ، وبَدَأَ النّاسُ يَهْجُرونَ الأَرضَ الى تِلْكَ المَصانِعِ، فَخَفَّتْ زِراعَةُ الحُبوبِ والتَّبْغِ المَصْدَرَيْنِ الهامَّيْنِ في حَياةِ الفَلّاحِ، ولَمْ تَعُدْ حاجَةٌ لِناطورٍ بَعْدَ الآنَ ..

وصابِرِ الشُّيوعيُّ المَكْروهُ مِنْ رِجالِ الدّينِ والحاكِمِ العَسْكَريِّ رَأَى ما لَمْ يَرَهُ النّاسُ، وكَأَنَّهُ رَأَى بِعَيْنِ عَقْلِهِ ما آلَتْ إلَيهِ الأَحْداثُ بَعْدَ ذلِكَ .. قالَ: هذِهِ مُؤامَرَةٌ خَطيرَةٌ تُحاكُ لَكُمْ، يُريدونَكُمْ أَنْ تَتْرُكوا الزِّراعَةَ لِتَبورَ الأَرضُ ومِنْ ثَمَّ يَسْهُلُ عَلى دائِرَةِ أَراضي إسْرائيلَ تَخْريشُها ومُصادَرَتُها.. نُقِلَ هذا الكَلامُ لِلْحاكِمِ العَسْكَرِيِّ، وطُلِبَ صابِرٌ لِلتَّحْقيقِ بِتُهْمَةِ التَّحْريضِ على دَوْلَةِ إسْرائيل !! وعِنْدَما سَمِعَ سباعي هذا الكَلامَ رَأَى فيهِ مَقولَةَ حَقٍّ مِنْ رَجُلِ شُجاعٍ، عارِفٍ بِما يَدورُ في عَقْليَّةِ الآخَرِ والآخَرُ هُنا لَيسَ رَجُلاً بَلْ إنَّهُ جِهازُ دَوْلَةٍ كامِلٍ ..قالَ:

Scanned with CamScanner

- كُلُّ الحَقِّ مَعَ العَمِّ صابِر! الأَعْمالُ بِالنِّيّاتِ، ونَوايا الحُكومَةِ تِجاهَنا غَيرُ تِلكَ الَّتي تِجاهَ اليَهودِ في هذِهِ البلاد.....

أَكْثَرُ مِنْ واحِدٍ قالَ:

- هذا شُيوعي لا يُعْجِبُهُ العَجَبُ.. كافِرٌ لا يَذهَبُ الى الكَنيسَةِ لِيَسْمَعَ صَلاةَ يَومِ الأَحَدِ ..

ويُعَلِّقُ آخَرُ:

- لِيُؤْمِنْ بِاللهِ أَوّلاً، بعْدَ ذلكَ لا يَهُمُّ إذا ذَهَبَ الى الكَنيسَةِ أَمْ لَمْ يَذْهَبْ ... !

ويُعَقِّبُ ثالِثٌ:

- طَقَيقْ حَنَكْ على الفاضي ولا يَأْتي مِنْ ورائِهِ سِوى خَرابِ البُيوتِ! وكُلُّ مَنْ يُصْغي الى كَلامِهِ ويُؤَيِّدُهُ بِما يَقولُ، تَضَعُ الحُكومَةُ نُقْطَةً سَوداءَ بِجانِبِ اسْمِهِ! فَلا يَجِدُ عَمَلاً بَعْدَها.

ويَتَّفِقُ الجَميعُ مُنْهِينَ حَديثَهم على أَنَّ الكَفَّ لا تُلاطِمُ مِخْرَزاً..

لَمْ يَقْتَنِعْ سباعي بِما أَجْمَعوا عَلَيهِ، بِأَنَّ الكَفَّ لا تُلاطِمُ مِخْرَزاً.. فَهذا العَمُّ صابِر، بِعِلْمِهِ العالي، وبِمَعْرِفَتِهِ الواسِعَةِ، كانَ بِإِمْكانِهِ أَنْ يَشْغَلَ أَرْقى الوَظائِفِ الحُكومِيَّةِ لَو أَنَّهُ أَدارَ ظَهْرَهُ لِقَضايا النّاسِ، والتَفَتَ الى قَضاياهُ الخاصَّةِ.. تُرى ما الَّذي يَجْعَلُهُ يَخْتارُ طُرُقَ الحَياةِ الصَّعْبَةَ، وأَمامَهُ طُرُقُها السَّهْلَةُ؟! ويَدْري أَنَّ الأُولى توصِلُهُ الى العَوَزِ والفَقْرِ، والثّانِيَةُ تَأْخُذُهُ الى رَغَدِ العَيشِ.. لا شَكَّ أَنَّ في هذا الرَّجُلِ سِراً وعَلَيَّ أَنْ أَعْرِفَهُ..أَجَلْ

عَلَيَّ أَنْ أَعْرِفَهُ في يَومٍ ما!..... هَمَسَ سباعي يُخاطِبُ نَفْسَهُ وهَمَسَ لَها أَيضاً أَنَّهُ لَنْ يَتْرُكَ عَمَلَهُ كَناطورٍ ما دامَ القَليلُ مِن أَهْلِ القَرْيَةِ يَحْتاجونَهُ..

***

وقِصَّةُ سباعي مَعَ رَيحانَة وكِتْمانُهُ السِّرَ، عَلَّمَاهُ أَنَّ الحُقولَ كَالبُيوتِ، ولِلْبُيوتِ أَسْرارٌ، ولِشَهامَةٍ فيهِ كانَ يَكْتُمُها في صَدْرِهِ أَمانَةً لا يُفَرِّطُ بِها مِمّا جَعَلَهُ يَكْسِبُ وُدَّ النّاسِ وَرِضاهُمْ واحْتِرامَهُمْ .. وكَثيراً ما حالَ كِتْمانُ السِّرِّ دونَ خَرابِ بيوتٍ و حَتّى جَرَيانِ دَمٍ .... كانَ نَهاراً رَبيعِيّاً بَهِيّاً مُسْرِفاً في بَهائِهِ وشَمْسُ الضُّحى تَخْتالُ في سمائِها كَأَميرَةٍ تُطِلُّ مِنْ شُرْفَةِ قَصْرِها تَنْتَظِرُ مَنْ يَتَوَسَّلُ إِلَيها كَي تُسْبِغَ عَليهِ بَعْضاً مِنْ رِضاها ودِفْءِ نَظَراتِها .. هذا يَومٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ على عِبادِهِ! ..قالَها في سِرِّهِ، ودَخَلَ الحُرْشَ كي يَقْضي حاجَتَهُ فَالْتَقَتْ عَيناهُ بِعَينَيها مِنْ خَلَلِ الأَغْصانِ المُتَمايِلَةِ مَعَ الرّيحِ .. لَمْ يَرَ مِنْها غَيرَ وَجْهِها المُوَرَّدِ والمُتَصَبِّبِ عَرَقاً، وغَيرَ بَياضِ إِحْدى فَخِذَيها، وغَيرَ ظَهْرِ الرَّجُلِ الَّذي فَوقَها! تَراجَعَ الى الوَراءِ حَريصاً على أَلّا يُصْدِرَ جَلَبَةً .. وانْسَلَّ كَما يَنْسَلُّ نَمِرٌ خَسِرَ مَعْرَكَةً عادَ الى بَيتِهِ مُسْتاءً مِمّا رَأى .. قالَتْ والِدَتُهُ:

- عُدْتَ باكِراً .. !

- جِئْتُ لِأَرتاحَ قليلاً ثُمَّ أعودُ .

Scanned with CamScanner

أزعَجَها شُحوبُهُ، قالَتْ: هلْ أنتَ مَريضٌ؟

- لا! سَأَرتاحُ قَليلاً ثُمَّ أعودُ ..

تَرَكَتْهُ الوالِدَةُ وهي تَعْتَقِدُ أنَّهُ يُفَكِّرُ بِأَمْرٍ ما، ولَيتَهُ يَكونُ بِبِنْتِ الحَلالِ!

ومَرَّ أُسبوعٌ بَعْدَهُ أُسبوعٌ آخَرُ .. وحينَ لَمْ يَنْتَشِرْ أيُّ خَبَرٍ في القَرْيَةِ، تَعَمَّدَتْ لِقاءَهُ، قالَتْ باكِيَةً:

- لَمْ تَفْضَحْني يا سباعي! سَتَرْتَ شَيْنَتي يا أصيلُ ..

يا تاجَ رَأسي .. أُطْلُبْ ..!

قالَ: التَّوبَةَ ..

قالَتْ: حَصَلَ .. وعلى يَدَيكَ ..!

أمّا حِكايَةُ قدّوره ابنِ أبي قدّوره فما زالَتْ في طَيِّ الكِتْمانِ حَتّى قدّوره نَفْسُهُ لا يَعْلَمُ أنَّ لَهُ حِكايةً وأنَّها سِرٌّ مَحْفوظٌ عِنْدَ سباعي، وربَّما عِنْدَ أبيه المَعْروفِ بِالفِطْنَةِ والحِكْمَةِ، لا لِأَنَّ سباعي باحَ بِالسِّرِّ، بَلْ لِأَنَّ أبا قدّوره اسْتَشَفَّهُ .... كانَ يَوماً رَبيعِيّاً يَغْمُرُ الكَونَ دِفْئاً وجَمالاً، وسباعي الّذي لا يُحْسِنُ الغِناءَ، راحَ يَتَرَنَّمُ بِأُغْنِيَّةِ داليدا الخالِدَة " حلْوة يا بَلَدي " كانَ في غايَةِ الانْبِساطِ .. يَلْتَفِتُ يَميناً ، ثُمَّ يَساراً .. وما إنْ نَظَرَ خَلْفَهُ وإذا بِقَطيعِ أبي قدّوره يَرْعى الزَّرْعَ .. تَبَخَّرَ ما كانَ في رَأْسِهِ مِنَ انْتِشاءٍ، وهَرَعَ الى شَفيرٍ يَقِفُ عَلَيهِ، عَلَّهُ يَرى قدّوره فَيُنَبِّهَهُ كي يَرُدَّ قَطيعَهُ عَنِ الزَّرعِ .. نَظَرَ حَولَهُ بِلا فائِدَةٍ فَقدّوره لا يُرى .. تُرى

أينَ اخْتَفى هذا الغشيم !! نَظَرَ الى أَسْفَلَ وإذا بِهِ يَفْعَلُها مَعَ عَنْزَةٍ .. صُعِقَ لِقَباحَةِ هذهِ الفِعْلَةِ، أرادَ أنْ يَصْرُخَ ويَشْتُمَ ويَلْعَنَ السَّفالَةَ والسَّفَلَةَ في هذا العالَمِ .. وأحَسَّ أنَّهُ سَيَتَقَيَّأُ أمْعاءَهُ لكِنَّهُ تَمالَكَ نَفْسَهُ وكَتَمَ قَرَفَهُ وغَضَبَهُ .. وتَراجَعَ الى الوَراءِ .. فَالحُقولُ كالبُيوتِ، والبُيوتُ أسْرارٌ!! أَلَيسَتْ هذهِ مَقولَتَهُ؟! رَكَضَ بِاتِّجاهِ القَطيعِ، وبَعْدَ أنْ جَمَّعَهُ في الأَرضِ البورِ أَطَلَّ قدّوره مِنْ بَعيدٍ .. بادَرَهُ سباعي ساخِطاً لاعِناً:

- أينَ اخْتَفَيتَ؟ أَلَمْ تَرَ قَطيعَكَ يَرعى الزَّرعَ !؟

- كُنْتُ أَقْضي حاجَتي ..

- وهَلْ قَضَيتَها يا لَعين؟!

قالَ سباعي كَلِمَتَهُ وتَرَكَه يَتَساءَلُ :

- لِمَ قالَ لي يا لَعين؟ هَلْ رَآني يا تُرى .. أَمْ قالَها هَكذا عَفْواً في ساعَةِ غَضَبٍ ..

حين الْتَقى فيها سباعي بِالعَمِّ أبي قدّوره بَعْدَ فِعْلَتِه تِلكَ، سَلَّمَ وقالَ :

- عَمّي بو قدّوره .. زوجْ قدّوره!

ضَحِكَ أبو قدّوره ضِحْكَةَ اللَّبيبِ الّذي بِالإشارَةِ يَفْهَمُ .. لَمْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى دُعِيَ أَهْلُ القَريَةِ لِحُضورِ زِفافِ قدّوره .. وكانَتِ الدَّعْوَةُ بِمُكَبِّرِ الصَّوتِ .. لِأَنَّهُ أرادَها أنْ تَكونَ عامَّةً .

Scanned with CamScanner

4

طَرَقَ البابَ ودَخَلَ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ إذْناً من صاحِبِ الدّارِ ولَمْ يَكُنْ صاحِبُها سِوى العَمِّ صابِرٍ الشُّيوعِيِّ الَّذي لا يَحْضُرُ صَلاةَ الأَحَدِ! كما يَزْعُمونَ.. اسْتَقْبَلَ سباعي بِابْتِسامتِهِ المُحَبَّبَةِ قائِلاً:

- يا هَلا بالسَّبْعِ .. سَمِعْتُ كَثيراً عَنْ ثَقافَتِكَ وعَنْ شَهامَتِكَ وشَجاعَتِكَ ..

ويَرُدُّ سباعي شاكِراً العَمَّ صابر على اسْتِقْبالِهِ اللَّطيفِ ومُعْتَذِراً في نَفْسِ الوَقْتِ:

- شُكْراً .. هذا بَعْضُ ما عِنْدَكَ .. وآسِفُ على مَجيئي من دونِ مَوعِدٍ سابِقٍ!

ويَرُدُّ العَمُّ صابِر بِفَرَحٍ غامِرٍ:

- أَهْلاً بِكَ يا بُنَيّ .. بِكَ وبِأَمْثالِكَ مِنَ الشَّبابِ الواعينَ الواعِدينَ يورِقُ فينا الأَمَل .

ودارَ الحَديثُ بَينَهُما بِمَوَدَّةٍ لَو سَمِعَهُما ثالِثٌ لَما صَدَّقَ أَنَّ هذا اللِّقاءَ هو الأَوَّلُ بَينَهُما .. وبَعْدَ حَديثٍ مُسْتَفيضٍ مِنْ صابِرٍ واصْغاءِ المُسْتَزيدِ من سباعي أَحَسَّ بِأَنَّهُ أَمامَ أَبٍ آخَرَ يُكَمِّلُ أَباهُ ..! أَبٍ روحِيٍّ يَنْهَلُ مِنهُ المَعْرِفَةَ كَما نَهَلَ مِنْ والِدِهِ القِيَمَ والأَخْلاقَ .. ولِقِراءاتِهِ المُنَوَّعَةِ والمُسْتَطيلَةِ لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيهِ أَنْ يُدْرِكَ ما يَشْرَحُهُ العَمُّ صابِرٌ عَنْ تَكَوُّنِ الكَونِ ونُشوءِ الحَياةِ والإنْسانِ، وعَنِ المَشاعِيَّةِ البِدائِيَّةِ حينَ كانَ النّاسُ يَحْيَوْنَ حَياةً جَماعِيَّةً: أَيْ أَنَّ الفَرْدَ لا يَمْلِكُ شَيئاً .. والمِلْكِيَّةُ لِلْجَميعِ .. هذِهِ هي

البِدايَةُ .. وهذِهِ هي الجُمْلَةُ الأولى في خِطابِ بِناءِ مُجْتَمَعٍ تَحْكُمُهُ العَدالَةُ الاجْتِماعِيَّةُ، بِلا احْتِكاراتٍ تُغْني الغَنِيَّ وتُفْقِرُ الفَقيرَ .. كُلُّ شَيءٍ في هذهِ الحَياةِ مَوجودٌ لِخِدْمَةِ الإنْسانِ!!

حَضَرَتِ القَهْوَةُ فَشَرِباها بِشُعورِ المُعَلِّمِ الَّذي وَجَدَ تِلْميذاً راغِباً في العِلْمِ، وبِشُعورِ التِّلْميذِ الَّذي وَجَدَ مُعَلِّماً عالِماً .. وقَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ رَأَى على الجِدارِ فوقَ المَدْخَلِ صورَةَ العَذْراءِ تَحْضُنُ طِفْلَها يَسوعَ .. فَضَحَكَ طَويلاً مِنْ سَخافَةِ مَنْ يُكَفِّرونَ العَمَّ صابِراً!

في طَريقِهِ عائِداً الى البَيتِ قالَ سباعي في سَريرَتِهِ: هذا هُوَ السِّرُّ إذاً! لَقَدْ آمَنَ العَمُّ صابر بِالنّاسِ، وعَمِلَ طَوالَ حَياتِهِ لِيُحَقِّقَ الحَياةَ الكَريمَةَ لَهُمْ ولَهُ، وذلِكَ بِتَحْقيقِ العَدالَةِ الاجْتِماعِيَّةِ، حَتّى لو كانَ الثَّمَنُ باهِظاً! لَقَدْ قَرَأَ كارل ماركس وآمَنَ بِما قالَ، وما قالَهُ جَديرٌ بِأَنْ يَخْرُجَ الإنْسانُ مِنْ جِلْدِهِ، ويَعْمَلَ على تَحْقيقِهِ، والوُصولِ الى الغايَةِ المَرْجُوَّةِ مَهْما طالَتْ، ومَهْما كانَتِ القَدَمُ بَطيئَةً.. وما إنْ وصَلَ سباعي بَيتَهُ حَتّى دَخَلَ غُرْفَتَهُ وراحَ يُعيدُ قِراءَةَ ما أَمْلاهُ عَلَيهِ العَمُّ صابر... كَمْ كانَ ماركس جَريئاً وصادِقاً حينَ قالَ: الفَلاسِفَةُ فَسَّروا العالَمَ بِأَشْكالٍ مُخْتَلِفَةٍ، والآنَ حانَ الوَقْتُ لِتَغْييرِهِ.. وقالَ: لا يَكْفي تَفْسيرُ العالَمِ بَلْ يَجِبُ تَغْييرُهُ.. وقالَ: تُصْبِحُ لِلْفِكْرَةِ قُوَّةٌ عِنْدَما تَسْتَولي على الجَماهيرِ.. وقالَ: .... مِنْ كُلٍّ بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ، ولِكُلٍّ

Scanned with CamScanner

بِحَسَبِ حاجَتِهِ..وقالَ: البروليتاريا لا يَمْلِكونَ شَيْئاً لِيَخْسَروهُ سِوى قُيودِهِمْ ..... فَيا أيُّها البروليتاريّونَ مِنْ جَميعِ البُلْدانِ اتَّحِدوا!!

أعادَ سباعي القِراءَةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخرى.. وقَبْلَ أنْ تَأْخُذَهُ سِنَةٌ مِنَ النَّومِ قَرَّرَ أنْ يَكونَ تِلْميذاً مُواظِباً وشاطِراً في مَدْرَسَةِ العَمِّ صابر!..

في زِيارَةِ سباعي الثّانِيَةِ لِلْعَمِّ صابرٍ خَلا الحَديثُ بَيْنَهُما مِنَ الحَرَجِ كَما كانَ في الزِّيارَةِ الأُولى وذلِكَ لِما أبْدَاهُ العَمُّ صابِرٌ مِنْ وِداديَّةٍ لِهذا الشّابِّ الَّذي حَباهُ اللهُ بِصِفاتٍ تُحَبِّبُهُ لِلنّاسِ، وتُؤَهِّلُهُ لِيَكونَ رَجُلاً قِيادِيّاً ما أخْوَجَ الحِزْبَ الى أمْثالِهِ في مُجْتَمَعٍ لا يَعْرِفُ عَنِ الشُّيوعِيَّةِ سِوى أنَّهُمْ أعْداءُ الدّينِ: أَلَمْ يَقُلْ مُعَلِّمُهُمُ الأكْبَرُ ماركس إنَّ الدّينَ والمُخَدِّرَ سِيّانِ في التَّأثيرِ السَّريعِ والشَّديدِ على الجَهَلَةِ مِنَ النّاسِ، معَ فارِقِ التَّشْبيهِ! وابنُ رُشْدٍ الّذي سَبَقَ ماركس بِقُرونٍ، قالَ: التِّجارَةُ بالأدْيانِ هي التِّجارَةُ الرّابِحَةُ في المُجْتَمَعاتِ الّتي يَنْتَشِرُ فيها الجَهْلُ، وإذا أرَدْتَ أنْ تَتَحَكَّمَ في جاهِلٍ فَعَلَيكَ أنْ تُغَلِّفَ كُلَّ باطِلٍ بِغِلافٍ دينيٍّ!

كُلُّ هذا دارَ في فِكْرِ العَمِّ صابِر، وقَدَّرَ ما يُمْكِنُ أنْ يُواجِهَ سباعي مِنْ مَصاعِبَ، قَبْلَ أنْ يَبْدَأَ بِالعَمَلِ على سباعي لِتَأْهيلِهِ لِأَخْذِ دَورِهِ ومَكانِهِ الصَّحيحَيْنِ في العَمَلِ الحِزْبِيِّ، سَأَلَهُ:

- هلْ والِدُكَ على عِلْمٍ بِزِياراتِكَ لي ؟

- حَقيقَةً لَمْ أُفَكِّرْ بِإخْبارِهِ .. عَمَلي كَناطورٍ عَوَّدَني عَلى أنْ أطْرُقَ أبْوابَ النّاسِ جَميعاً .. فَلِماذا أُخْبِرُهُ؟

- لا يا سباعي .. الأمْرُ هُنا مُخْتَلِفٌ تَماماً .. أُحِبُّ أنْ يَعْلَمَ والِدُكَ بِزِياراتِكَ لي

- ولِماذا إصْرارُكَ هذا؟

- سَلْهُ وسَتَعْرِفُ مِنْهُ!

وعِنْدَما سَألَ والِدَهُ، قالَ:

- رَجُلٌ ونِعْمَ الرِّجالُ .. وصَديقٌ ونِعْمَ الصَّديقُ .. ولكِنَّ دَرْبَهُ شائِكٌ وطَويلٌ!

وراحَ الشَّيخُ سالم يَقُصُّ على ولَدِهِ سباعي بَعْضَ ما قاساهُ العمُّ صابر في حَياتِهِ بَدْءاً بِالحُكْمِ عَلَيهِ بِالإعْدامِ سَنَةَ النَّكْبَةِ هو وبَعْضُ رِفاقِهِ لِأَنَّهُم وزَّعوا مَنْشوراً يَشْرَحُ لِلنّاسِ لِماذا يُوافِقونَ على قَرارِ تَقْسيمِ البِلادِ الى دَوْلَتَيْنِ، الصّادِرِ عَنْ هيئَةِ الأُمَمِ.. وقَدْ أثْبَتَتِ الأيّامُ أنَّ رَأْيَهُمْ كانَ صائِباً! وسُجِنَ لِأَنَّهُ نَظَّمَ مُظاهَرَةً ضِدَّ حَربِ 56، أو ماعُرِفَتْ بِالعُدوانِ الثُّلاثي(بَريطانيا فَرَنْسا إسْرائيل) على مِصْرَ واحْتِلالِ قِطاعِ غَزَّةَ وارتِكابِ مَجْزَرَةِ كُفر قاسم، هذا الى جانِبِ سَدِّ سُبُلِ العَمَلِ أمامَهُ، وفَرضِ الحَبْسِ المَنْزِلِيِّ حيناً والإقاماتِ الجَبْرِيَّةِ دائِماً، خاصَّةً بَعْدَ حَربِ حزيرانِ المُهينَةِ لِلْعَربِ... الشُّيوعِيُّونَ يا وَلَدي – دَعْكَ مِنْ قَضِيَّةٍ يُؤْمِنونَ بِالأدْيانِ أو لا يُؤْمِنونَ – هُمْ قادَةٌ حَقيقِيّونَ، بِمَعْرِفَتِهِمْ القَوانينَ المَحَلِّيَّةِ والدَّوليَّةِ وبِصُحُفِهِم- الاتّحاد والجديد والغَدّ –

Scanned with CamScanner

اسْتَطاعوا أنْ يُخرِجوا النّاسَ مِنْ أقْبِيَةِ الخَوفِ الى ساحاتِ النِّضالِ في هَذِهِ البِلادِ، وعَدَمِ الخُنوعِ لِظالِمٍ، وبِصَحافَتِهِمْ أيضاً، حافَظوا على اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنَ الضَّياعِ، كَما ضاعَ الشَّعْبُ، ومِنْ هُنا جاءَتْ مُضايَقَةُ الحُكومَةِ لَهُمْ، خاصَّةً وأنَّهُمْ حِزْبٌ أُمَمِيٌّ فيهِ اليَهودِيُّ الى جانِبِ العَرَبِيِّ في ساحاتِ النِّضالِ مِنْ أجْلِ حياةٍ كَريمَةٍ لِلْجَميعِ.... العَمُّ صابر يا وَلَدي بَطَلٌ، وصَداقَتُهُ مُشَرِّفَةٌ..

بَعْدَ ما سَمِعَهُ سباعي مِنْ والِدِهِ كانَتِ الزِّيارَةُ الثّالِثَةُ ميثاقَ شَرَفٍ بَينَهُ وبَينَ العَمِّ صابر الّذي سُرَّ بِقَرارِ سباعي كَما يُسَرُّ فَلّاحٌ بِسُقوطِ المَطَرِ بَعْدَ طولِ جَفافٍ، قالَ:

اسْمَعْ يا وَلَدي يا سباعي.. عَلَيكَ إذاً، أنْ تَبْحَثَ عنِ عَمَلٍ مُسْتَقِلٍ تَغتاثُ مِنْهُ بِكَرامَةٍ، فَتَمْنَعُ عَلَيهِمْ طَريقَ مُحارَبَتِكَ، وسَدَّ دُروبِ النَّجاحِ أمامَكَ، الأمْرُ الّذي لَمْ أفْعَلْهُ أنا! فَدَفَعْتُ ثَمَناً باهِظاً راحَ ضَحِيَّتَهُ أفْرادُ عائِلَتي..

فَتَبِعَ مَيلَهُ الى الحِدادَةِ رغْمَ صُعوبَتِها، وأصْبَحَ حَدّاداً .

خِطْبَةُ سُعْدى لَمْ تَطُلْ، فَخَطيبُها مِنْ إحْدى القُرى المُجاوِرَةِ، وهو مُدَرِّسٌ في مِهْنَتِهِ، كانَ على عَجَلَةٍ مِنْ أمْرِهِ .. وعِنْدَما أخَذَ سباعي يَدَ اخْتِهِ لِيوصِلَها الى السَّيّارَةِ المُزَيَّنَةِ والّتي سَتُقِلُّها الى بَيتِها الجَديدِ، هَمَسَ في سِرِّهِ:

- ما أسْرَعَ الأيّامَ! صَدَقَ سَيِّدُنا نوح وهو يُوَدِّعُ الدُّنيا.

وكانَ قَدْ عَمَّرَ طَويلاً، سُئِلَ: كَيفَ وجَدْتَ الدُّنيا؟ قالَ

- مِثْلَ دارٍ لها بابانِ، دَخَلْتُ مِنْ هذا، وخَرَجْتُ مِنْ هذا!

وأنْتَ يا سباعي ماذا تَنْتَظِرُ؟ أَلَمْ يَئِنِ الأوانُ لِتَبْحَثَ لَكَ عَنْ فَتاةٍ تَبْني بِها؟ ها هي سُعْدى الأصْغَرُ مِنْكَ سِنّاً تُغادِرُ البَيتَ تارِكَةً وَراءَها أريجَ طُفولَتِها وصِباها لِتَنْتَقِلَ الى بَيتٍ جَديدٍ هي رَبَّتُهُ ولَنْ يَمْضي كَثيرُ وَقْتٍ حَتّى تُصْبِحَ أُمّاً، وسَتَحُلُّ رائِحَةُ البَصَلِ والثّومِ على يَدَيها بَدَلَ رائِحَةِ كُريم نيفيا، أو فِنْجال.... وكانَ قَدْ وَصَلَ بِاخْتِهِ الى السَّيّارَةِ، فانْطَلَقَتْ زَغْرودَةٌ أعادَتْهُ الى الواقِعِ . فَقَبَّلَ اخْتَهُ الباكِيَةَ قُبْلَةَ الوَداعِ، وتَذَكَّرَ قَولَ والِدَتِهِ: زَوِّجْ بِنْتَكَ قَبْلَ ابْنِكَ .. قَولٌ جَعَلَهُ يُؤَجِّلُ فِكْرَةَ الزَّواجِ الى أنْ يقضي اللّهُ أمْراً كانَ مَفْعولا!

لَو كانَ الأمْرُ بِيَدِ سباعي لَما وافَقَ على زَواجِ اخْتِهِ مِنْ مُدَرِّسٍ لا لِشَيءٍ سوى لِأنَّ المُدَرِّسَ مُوَظَّفٌ في وزارَةِ المَعارِفِ تَحْتَ رَحْمَةِ مَسْؤولينَ يَعْمَلونَ على أنْ يُصْبِحَ المُعَلِّمونَ إمَّعاتٍ فَلا يَغْرِسونَ

Scanned with CamScanner

حُبِّ الوَطَنِ في نُفوسِ تَلامِيذِهِم، والتَّأكيدِ على انْتِمائِهِمِ العَرَبِيِّ كَيلا تَضيعَ الهُوِيَّةُ مِثْلَما ضاعَ الوَطَنُ .. وكانَ المُعَلِّمونَ آنَذاكَ الحَلَقَةَ الأَضْعَفَ في المُجْتَمَعِ .. يَكْفيهِمْ إذْلالاً أَنَّهُم كانوا يُزَيِّنونَ المَدارِسَ ويُقيمونَ الاحْتِفالاتِ، ويَخْطُبُ مُديرو المَدارِسِ خِطاباتِهِمْ تَمْجيداً بِالدَّولَةِ الفَتِيَّةِ في عيدِ اسْتِقلالِها الَّذي هُوَ يَومُ هَدْمِ مُعْظَمِ قُرانا، وتَشْريدِ أَهلِها ..

ويَتَذَكَّرُ سباعي وهو طالبٌ في الصَّفِّ الخامِسِ الابْتِدائِيِّ كَيفَ وُزِّعَتْ عَلَيهِمْ أَعلامُ الدَّولَةِ لِيَرفَعوها في اسْتِقْبالِ رَئيسِ الدَّولَةِ الَّذي حَضَرَ لِافْتِتاحِ مُسْتَوطَنَةٍ قامَتْ على أَرْضِ القَرْيَةِ الَّتي انْتَزَعوها بِسَوطِ السُّلْطَةِ وأَنْيابِ الكِلابِ الَّتي سَلَّطوها على أَصْحابِ الأَراضي المُعارِضينَ....

ويُطْلَبُ منَ العَمِّ صابِر تَفْسيراً لِما آلَ اليهِ حالُ المَدارِسِ والمُدَرِّسينَ، والعِلْمِ والتَّعْليمِ.. فَيَنْفُثُ حُزْناً حَبيسَاً في صَدْرِهِ ويُرَدِّدُ: لا تَلوموا الضَّحِيَّةَ ..! لا تَلوموا الضَّحِيَّةَ!

رِهامُ ابْنَةُ العَمِّ صابِر فَتاةٌ سَمْراءُ بِشَعْرٍ أَسْوَدَ أَجْعَدَ وبِعَينَينِ كَحيلَتَينِ وقَدٍّ مُتَماسِكٍ يَميلُ الى السِّمْنَةِ قَليلاً، مُحَدِّثَةٌ لَبِقَةٌ تَعْرِفُ كَيفَ تَشُدُّ مُحَدِّثَها الى حَديثِها الَّذي يَنِمُّ عَنْ ذَكاءٍ واضِحٍ.. رَغْمَ عَدَمِ تَجاوُزِها سِنَّ العِشْرينَ..

- لِمَ لَمْ تَتَعَلَّمي يا رِهام؟ سَأَلَها سباعي مَرَّةً.

- ظُروفٌ.. وتَنْظُرُ الى والِدِها.. ووالِدُها يَتَناوَلُ الحَديثَ ويُتابِعُ:

- في الفَتْرَةِ الَّتي كانَ يَجِبُ أَنْ تَبْدَأَ دِراسَتَها الثّانَوِيَّةَ كُنْتُ عاطِلاً عَنِ العَمَلِ؛ حَتّى أَخوها رَشيدٌ اضْطُرَّ الى أَنْ يَقْطَعَ دِراسَتَهُ لِيَجِدَ عَمَلاً، وحينَ لَمْ يَجِدْ فُرْصَتَهُ، اتَّفَقَ مَعَ بَعْضِ الأَصْدِقاءِ على أَنْ يُسافِروا الى كَنَدا لَعَلَّهُ يَجِدُها هُناكَ.

وتَدْخُلُ العَمَّةُ أُمُّ رَشيد وقَدْ أَعَدَّتْ قَهْوَتَها المُهَيَّلَةَ المُمَيَّزَةَ، لِتُؤَكِّدَ ما سَمِعَتْهُ مِنْ حَديثِهِمْ وهِيَ تُعِدُّ القَهْوَةَ ..

- أَيّامٌ سَوداءُ عِشْناها على اللُّقْمَةِ النّاشِفَةِ وحَبَّةِ البَنادورةِ .. تُوَجِّهُ الحَديثَ الى سباعي وتُتابِعُ:

- لَقَدْ أَقْفَلوا كُلَّ الأَبْوابِ في وَجْهِ عَمِّكَ صابِر..

وشُغْلُ المُياوَمَةِ لا يُعيلُ عائِلَةً، فَكَيفَ سَيُغَطّي نَفَقاتِ الدِّراسَةِ الباهِظَةَ ؟!

Scanned with CamScanner

لَمْ يَخْفَ على سباعي سَبَبُ كُلِّ هذِهِ المُضايَقاتِ الَّتي لَحِقَتْ بالعَمِّ صابِر، وألْحَقَتْ بِهِ ضَرَراً مادِّيّاً أيَّ ضَرَرٍ.. ولَيتَها وَقَفَتْ عِنْدَ الضَّرَرِ المادِّيّ، فَقَدْ أَلِبُوا عَلَيهِ ضِعافَ النُّفوسِ، والمُتَعَصِّبينَ طائِفِيّاً مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ؛ حَتّى أَقارِبُهُ لَمْ يَسْلَموا مِنْ ضَغْطِ السُّلْطَةِ، ومِنْهُمْ أَحَدُ أَخَوَيهِ، وهَؤُلاءِ بِدَورِهِمْ راحوا يَضْغَطونَ على العَمِّ صابر كَي يَتَراجَعَ عَنْ دَرْبٍ لا يَجْلِبُ لِصاحِبِهِ سِوى عَداواتِ النّاسِ، خاصَّةً المُتَدَيِّنينَ مِنْهُمْ، وسِوى ضَنْكِ العَيشِ، وعَضَّةِ الفَقْرِ! يُريدونَ، ومِنَ البِدايَةِ كَسْرَ شَوكَتِهِ ورَدْعِهِ عَنْ افْتِتاحِ فَرْعٍ لِلْحِزْبِ الشُّيوعيِّ في القَرْيَةِ..فَتْحُ هذا الفَرْعِ يوقِظُ النّائِمينَ والسّاكِتينَ عَنْ حُقوقِهِمْ، ويُقْلِقُ الدَّوائِرَ الحُكومِيَّةَ الَّتي تُعامِلُ العَرَبَ على أَنَّهُمْ رَعايا لا مُواطِنونَ هُمْ أَصْحابُ حَقٍّ في هذا الوَطَنِ ..

شَرِبَ سباعي قَهْوَتَهُ واسْتَأْذَنَ وخَرَجَ مُسْتاءً مِن تِلْكَ الظُّروفِ الصَّعْبَةِ الَّتي مَرَّتْ على العَمِّ صابِر، هو وعَدَدٌ قَليلٌ مِنَ الرِّفاقِ مِعَهُ، وحَمَدَ رَبَّهُ على أَنَّ هذِهِ الظُّروفَ قَدْ وَلَّتْ؛ وعادَ صُمودُ العَمِّ صابر وَرِفاقِهِ عَلَيهِمْ بِاحْتِرامِ النّاسِ وتَقْديرِهِمْ.. وتَأَكَّدَ أَنَّ مُضايَقاتِ السُّلْطَةِ في دَولَةٍ تَبْني نَفْسَها رَأسمالِيّاً، ما هي إلّا إثْباتٌ قاطِعٌ على أَنَّ الفِكْرَ الماركسِيَّ هو المَنارُ الَّذي يَهْدي السُّفُنَ الضّالَّةَ، ويُعيدُها الى مَرافِئِها!

***

تَتالَتْ زِياراتُ سباعي لِلْعَمِّ صابر .. حَتّى أَصْبَحَتْ شِبْهَ يَوميَّةٍ، فَقَدْ وَجَدَ في هذِهِ الزِّياراتِ ما لَمْ يَجِدْهُ في الكُتُبِ الَّتي اعتادَ على قِراءَتِها .. لِأَوَّلِ مَرَّةٍ يَسْمَعُ عن المادِّيَّةِ التّاريخِيَّةِ وعن الدِّيالَكْتيكِ ورَأسِ المالِ؛ ومِنْ هذِهِ الزِّياراتِ فَهِمَ أيضاً ما مَعْنى الصِّراعِ الطَّبَقِيِّ وأَنَّ هُناكَ مُسْتَغِلُّونَ وهُناكَ مُسْتَغَلُّونَ في كُلِّ مُجْتَمَعٍ بَشَرِيٍّ، وسَيَظَلُّ الوَضْعُ كَما هو عَلَيهِ ما لَمْ تَقُمِ الطَّبَقَةُ العامِلَةُ في هذا العالَمِ بِبِناءِ مَنْظوماتِها الاشْتِراكِيَّةِ لِتُعيدَ بِناءَ مُجْتَمَعاتِها على العَدالَةِ والحُرِّيَّةِ والمُساواةِ .. ولَمْ يَعُدْ هذا حُلْمَ الفُقَراءِ كَما يَتَنَدَّرُ البَعْضُ.. فَدُوَلُ شَرْقِ أُوروبّا وعلى رَأْسِها الاتِّحادُ السّوفياتيُّ العَظيمُ شاهِدُ عِيانٍ على أَنَّ الأَمْرَ لَيسَ حُلْماً بَلْ هوَ حَتْمِيَّةٌ تاريخِيَّةٌ ..

كانَ العَمُّ صابِر يَشْرَحُ بِحَماسٍ وإيمانٍ مَنْ يَرى النَّصْرَ على الأَبْوابِ، وكانَ سباعي يَتَساءَلُ في نَفْسِهِ مُنْدَهِشاً مَتى وكَيفَ حَشا جُمْجُمَتَهُ الصَّغيرَةَ بِهذا الفَيضِ مِنَ المَعْلوماتِ ولَمْ تَزِدْ دِراسَتُهُ عَنِ الصَّفِّ السّابِعِ الابْتِدائِيِّ .. وتَذَكَّرَ كَيفَ أَنَّهُ هو أيضاً لَمْ يَسْتَطِعْ مُواصَلَةَ دِراسَتِهِ التَّوجيهِيَّةِ .. فَرَأى في العَمِّ صابِر عَزاءً كَبيراً .

لَمْ تَكُنْ عَلاقَةُ سباعي بِالعَمِّ صابِر فَقَطْ، بَلْ تَعَدَّتْها الى زَوجَتِهِ العَمَّةِ أُمْ رَشيد والى ابْنَتِها رِهام، حَتّى أَنَّ العَمَّةَ أُمْ رَشيد قالَتْ ذاتَ جَلْسَةٍ دافِئَةٍ بِنَبْرَةٍ ودادِيَّةٍ.

- لو نَحْنُ يا سباعي على دينٍ واحِدٍ لَزَوَّجْناكَ رِهام!

Scanned with CamScanner

ويُطَأْطِئُ سباعي رَأْسَهُ احْتِرامَاً وتَقْديراً، مُدْرِكَاً المَنْزِلَةَ العالِيةَ الّتي يَحْمِلونَها لَهُ ..وبِفِنْجانِ القَهْوَةِ الّذي حَضَرَ أَنْهى سباعي زِيارَتَهُ .

ما أَسْرَعَ الأَيّامَ! تَأْتينا بِمَواعيدِها السَّرْمَدِيَّةِ، لا تَتَأَخَّرُ لَحْظَةً، ولا تَتَقَدَّمُ لَحْظَةً فَتَسْحَبُ مِنّا أَيّامَنا كَما يَسْحَبُ النَّسّالُ مَحافِظَنا من جُيوبِنا، وتُراكِمُها يَوماً فَوقَ يَومٍ وشَهْراً فَوقَ شَهْرٍ، وسَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ تُسَمّى عُمْراً نَعيشُهُ طُفولَةً فَصِبا فَشَبابَاً فَكُهولَةً فَشَيخوخَةً .. ها هيَ سُعادُ تُنْهي دِراسَتَها الثّانَوِيَّةَ وتَنْتَظِرُ قَرارَ والِدَيها في أَمْرِ مُواصَلَةِ دِراسَتِها الجامِعِيَّةِ، خاصَّةً وأَنَّ حالَتَهُمْ المادِّيَّةَ قد طَرَأَ عَلَيها تَحَسُّنٌ واضِحٌ بِفَضْلِ سباعي وقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيهِ في وَزْشَتِهِ .. وإزاءَ تَرَدُّدِ الوالِدَينِ، نَزَلَ قَرارُ سباعي حادّاً قاطِعَاً

- أَنْتِ يا أُمّاهُ تَقولينَ زَوِّج بِنْتَك قبل ابْنِك وأنا أقولُ عَلِّمْ بِنْتَكَ قَبْلَ ابْنِكَ!
- ولكِنْ كَيفَ سَتَعيشُ وحيدَةً وتَنامُ خارِجَ البَيتِ!؟
- بَلْ تَعيشُ مَعَ زَميلاتٍ مِثْلِها .. ثُمَّ ما هذا القَلَقُ الّذي يُساوِرُكُما! أَلَسْتُما واثِقَينِ مِنْ تَرْبِيَتِكُما لِسُعاد؟
- بَلى ... بَلى ولكِنَّ كَلامَ النّاسِ يَقْصِمُ الظَّهْرَ!
- وكلامُ النّاسِ يا أبي لا يَنْتَهي، ولا يَبْني لِسُعاد مُسْتَقْبَلاً ..

ودَخَلَتْ سُعادُ الجامِعَةَ واخْتارَتِ التَّمريضَ مَوضوعَاً لِدِراسَتِها .

Scanned with CamScanner

أمّا أخوهُ سامح فكانَ لا يَزالُ في مَرحَلَةِ الدِّراسَةِ الثّانَويّةِ، وكانَ طالِباً مُتَفَوِّقاً ..

***

الأيّامُ تَمُرُّ .. والنّاسُ كُلٌّ في شُؤونِهِ الخاصّةِ، وبِلُغَةِ أُمِّ سباعي: إللي فيها مكَفّيها!، ومَظالِمُ السُّلطَةِ الاسرائيليّةِ لا تَنْتَهي .. وكَيفَ سَتَنْتَهي ومِنْ حينٍ لِآخَرَ يُفاجِئُونَ النّاسَ بِقانونٍ جَديدٍ إنْ كانَ ذلِكَ في البِناءِ وفي إثْباتِ مَلَكِيَّةِ الأَراضي وفي الضَّرائِبِ مِنْ كُلِّ شَكْلٍ ولَونٍ أَغْرَبُها الضَّرائِبُ المَفروضَةُ لِتَغْطِيَةِ تَكاليفِ الحُروبِ الّتي تَشُنُّها إسرائيلُ على جيرانِها، مُفْتَعِلَةً لِكُلِّ حَرْبٍ سَبَباً: أمّا النَّصْرُ فَهو مَضْمونٌ لَها دائِماً..أَلَمْ يُصَرِّحْ أَوَّلُ رَئيسِ حُكومَةٍ لَهُمْ: نَجاحُنا لا يَعْتَمِدُ على ذَكائِنا بِقَدْرِ ما يَعْتَمِدُ على جَهْلِ وغَباءِ الطَّرَفِ الآخَرِ!

***

وسباعي لا يَنْقَطِعُ عَنْ زِيارَةِ العَمّ صابِر .. وفي يَومٍ طَرَقَ البابَ فَرَدَّتْ رِهام تَأْذَنُ لَهُ بِالدُّخولِ .. اسْتَقْبَلَتْهُ بِبَسْمَةٍ تُضيءُ وَجْهَها الجَميلَ .. سَأَلَها

- أينَ العَمُّ صابِر؟

- مُسافِرٌ

- والعَمّةُ أُمّ رشيد

- خَرَجَتْ لِتَزورَ بَعْضَ صَديقاتِها

وبَهُمُّ سباعي بِالخُروجِ ..لَكِنَّ إلْحاحَ رِهام بِالمُكوثِ جَعَلَهُ يَمْتَثِلُ لِطَلَبِها وهو يَتَساءَلُ في سِرِّهِ..تُرى ما تُريدُ مِنْهُ؟ لَعَلَّها تُريدُ أنْ تَسْتَشيرَهُ في أَمْرٍ خاصٍّ بِها بَعيداً عَنْ أَهْلِها وكَأَنَّها بِذَكائِها الفِطْرِيِّ حَدَسَتْ ما يَدورُ بِذِهْنِهِ، قالَتْ وبِلا مُقَدِّماتٍ:

- أَتَذْكُرُ ما قالَتْ والِدَتي مُمازِحَةً؟

- ماذا قالَتْ؟ ذَكِّريني .. فَالعَمّةُ أُمُّ رَشيدٍ كَثيرَةُ المُزاحِ

- قالَتْ لَو كُنّا على دينٍ واحِدٍ لَكُنّا زَوَّجْناكَ رِهام

- لَكِنَّها قالَتْ ما قالَتْهُ مُمازِحَةً .... خَرَجَتْ كَلِماتُهُ تَقْطُرُ دَهْشَةً !

- لَكِنّي أنا لا أَمْزَحُ .. ألا يَجْمَعُنا مَبْدَأٌ واحِدٌ؟

- المَبْدَأُ لَيسَ ديناً يا رِهام ..إنَّهُ طَريقٌ يَجْمَعُنا.. ثُمَّ ألا تُدْرِكينَ في أَيِّ مُجْتَمَعٍ نَعيشُ! وما سَيُلْحِقُ هذا التَّصَرُّفُ الأَحْمَقُ- لَو تَمَّ - مِنْ ضَرَرٍ لِمَرْكَزِنا الاجْتِماعِيِّ وعَمَلِنا الحِزْبِيِّ؟!

- تَقَدَّمْ لِخِطْبَتي يا سباعي ! لَنْ أَجِدَ شابّاً أَفْضَلَ مِنْكَ ..

وهُنا أَخَذَتْ راحَتَهُ بَيْنَ راحَتَيها النّاعِمَتَيْنِ الحارَّتَيْنِ غَيرَ مُنْتَظِرَةٍ إجابَةً .. وبَيْنَما كانَتْ تَقْتَرِبُ مِنْهُ لِتُلْقي نَفْسَها بَيْنَ ذِراعَيهِ هَمَسَتْ:

- أنا أُريدُكَ شَريكَ حَياتي يا سباعي !!

Scanned with CamScanner

وشَفَتاها النّاضِجَتانِ المُهَيَّأتانِ لِقُبلَةٍ أعادَتاهُ الى زِيارَتِهِ الأُولى لِلْعَمّ صابر .. لَقَدْ دَخَلَ هذا البَيتَ غَريباً ، وسُرْعانَ ما أصْبَحَ واحَداً مِنْ أفْرادِهِ .. ذلكَ بِفَضْلِ كَرَمِ أخْلاقِ هذهِ العائِلَة الكَريمَةِ الرّاقِيَةِ .. لا!! لا!! لَسْتَ أنْتَ يا سباعي الّذي يُقابِلُ الإحْسانَ بِالإساءَةِ .. لِلْبُيوتِ حُرْمَتُها ..هذا ما أرْضَعَكَ إيّاهُ أبوكَ كما تُرْضِعُ الأُمُ رَضيعَها .. ولِهذا البَيتِ حُرْمَةٌ خاصَّةٌ .. لا .. لا .. لا! ..... وطَبَعَ سباعي قُبْلَةً على جَبينِها وَخَرَجَ ....

قَطَعَ زِياراتِهِ لِبيتِ العَم صابر مُدَّةً، لا لِأنَّهُ لا يُريدُ ذلِكَ، ولا لِأنَّهُ غاضِبٌ مِنْ تَصَرُّفِ رِهام غَيرِ المُتَوَقَّعِ بَلْ على العَكْسِ .. إنْ كانَ هُناكَ مَكاناً لِلْغَضَبِ أو اللّومِ فَهُوَ على نَفْسِهِ هُو لِخَوفِهِ مِنْ أنْ يَكونَ قَدْ جَرَحَ كَرامَةَ اللّبْؤَةِ الرّابِضَةِ بِداخِلِ كُلِّ أُنثى ..وتَمَنّى على نَفْسِهِ أنْ يَكونَ ما اقْتَرَفَهُ خَدْشاً بَسيطاً على الجِلْدِ سُرْعانَ ما يَبْرَأُ غَيْرَ تارِكٍ أيَّ أثَرٍ لِتَعودَ المَوَدَّةُ بَينَهُما كَما كانَتْ .. وقَرَّرَ أنْ لا يَتَنازَلَ عَنْ صَداقَتِها مَهْما كَلَّفَهُ الأمْرُ .. وهو مُتَأكِّدٌ مِنْ أنَّ ما حَدَثَ بَينَهُما، لا يَحْدُثُ بَينَها وبَينَ أيِّ شَخْصٍ آخَرَ لِما يَعْهَدُهُ بِها مِنْ قُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، والأخْلاقِ العالِيةِ

طَرَقَ البابَ ودَخَلَ .. كانوا يَجْلِسونَ حَولَ المائِدَةِ يَتَناوَلونَ غَداءَهُمْ .. وأوَّلُ ما شَدَّ انْتِباهَهُ ابْتِسامَةُ رِهام المُحَبَّبَةُ الّتي تَزيدُ وَجْهَها جَمالاً وصَفاءً، والّتي بَدَّدَتْ كُلَّ مَخاوِفِهِ، قالَتْ :

- حَماتُكَ تُحِبُّكَ ..

ونَظَرَتْ الى والِدَتِها نَظْرَةً ذاتَ مَعْنىً لَمْ يُدْرِكْهُ سِواهُما قالَ:

- الحَمْدُ لِلهِ لَيسَ لي حَماةٌ

- هذا فيما سَيَكونُ

وتَرْشُقُهُ العَمَّةُ أُمُّ رشيد بِنَظْرَةِ عِتابٍ واضِحٍ، تَقولُ:

- لا تَغْلَطْ يا بُنَيَّ .. الحَماةُ العاقِلَةُ أُمٌّ ثانِيَةٌ!

- بِالتَّأكيدِ !! أجْمَعَ الجَميعُ ..

وكَي لا يُساءَ فَهْمُ الحَديثِ عَنِ الحماةِ ، تابَعَتْ رِهام:

- وُجودُكَ بَينَنَا يا شَدّاد يُعَوِّضُني عَنْ غياب أخي رشيد

مُخاطَبَةُ سباعي بِاسْمِهِ الحَقيقِيِّ أزاحَتْ عِبْئاً ثَقيلاً عَنْ كَتِفَيهِ فَقَدْ أعادَتِ العَلاقَةَ بَينَهُما الى مَكانِها الصَّحيحِ ..

وكانَ العَمُّ صابر أثْناءَ ذلِكَ يُصْغي الى حَديثِهِمْ ويَتَناوَلُ غَداءَهُ بِمُتْعَةٍ، فالعَمَّةُ أُمُّ رَشيد طَبّاخَةٌ ماهِرَةٌ بِشَهادَةِ نِساءِ الحارَةِ خاصَّةً في الأكْلاتِ الشَّعْبِيَّةِ كالمَجَدَّرَةِ والمَفْلوبَةِ والكُبَّةِ والمُغْرَبِيَّةِ....والقائِمَةُ طَويلَةٌ رَفَعَ رَأْسَهُ بِحَرَكَةٍ مَنْ تَذَكَّرَ شَيئاً هامّاً، قالَ :

- لَكَ سَلامٌ حارٌّ مِنْ رَشيد، أمْسِ تَسَلَّمْنا رِسالَةً مِنْهُ .. ويَرُدُّ سباعي بِفَرَحٍ صادِقٍ:

- ما أشَدَّ شوقي لِلِقائِهِ!.. كَيفَ هو؟ وهل من جَديدٍ عِنْدَهُ؟ هاتِ يا عَم صابر.

- سَلامٌ وكَلامٌ .. ويَقولُ إنَّهُ تَزَوَّجَ مِنْ فَتاةٍ كَنَدِيَّةٍ اسْمُها جوليا.. ويُؤَكِدُ أنَّها مِنْ جُذورٍ عَرَبِيَّةٍ لُبْنانِيَّةٍ كانَ جَدُّها الأوَّلُ قد هاجَرَ الى الأرْجَنْتين هَرَباً مِنْ ظُلْمِ جَمال باشا، وبَنى

Scanned with CamScanner

مَصْنَعاً لِلسَّجائِرِ، وبنَجاحِ العَمَلِ واتِّساعِهِ، انْتَقَلَ أَحَدُ أَبنائِهِ الى كَنَدا لِإدارَةِ فَرْعِ الشَّرِكَةِ هُناكَ، وطَبيعيٌّ أَنْ يَسْتَقِرَّ ويبْني أُسْرَةً هي أُسْرَةُ الفَتاةِ الَّتي تَعَرَّفَ عَلَيها رَشيد أَثْناءَ عَمَلِهِ في شَرِكَةِ والِدِها وتَزَوَّجا .. يقُولُ رشيد إنَّها فَتاةٌ جَميلَةٌ خَلوقَةٌ مُثَقَّفَةٌ، يكْفي أَنَّها لا تَتَنَكَّرُ لِجُذورِها العَرَبِيَّةِ بَلْ تَفْتَخِرُ بِأَنَّها عَرَبِيَّةٌ .. ويَقولُ: إنَّهُما يَنْتَظِرانِ مَولودَهُما الأَوَّلَ فَإنْ كانَ ذَكَراً فَسَيُسَمّيانِهِ (صابر) وإنْ كانَ أُنْثى فَ (عَبْلَة) ويَسْأَلُ سباعي:

- عَفْواً على المُقاطَعَةِ .. مَنْ عَبلَة هذِهِ الّتي سَيُسَمّيانِ مَولودَتَهُما بِاسْمِها!؟

وتَتَعالى الضَّحِكاتُ حَولَهُ مِمّا أَحْرَجَهُ قَليلاً ..

- عَبْلَة يا عَزيزي عَمَّتُكَ أُمُّ رَشيد ..

ويَضْحَكُ سباعي هو الآخَرُ، فَقَدْ تَعَرَّفَ على العَمَّةِ أُمِّ رشيد بِكُنْيَتِها ولَيسَ بِاسْمِها .. ويُتابِعُ العَمُّ صابِر حَديثَهُ ..... يَقولُ رَشيد إنَّها في شَوقٍ لِرُؤْيَتِكُمْ والتَّعَرُّفِ عَلَيكُمْ .. ويَخْتِمُ رِسالَتَهُ: أنا في شَديدِ الشَّوقِ لِرُؤْيَتِكُمْ وتَقْبيلِ يَدِكَ ويَدِ والِدَتي الغالِيَةِ، أَمّا قُبْلَتي الحارَّةُ فَأَدَّخِرُها لِشَقيقَتي رِهام ..سَلامي الى الأَخِ سباعي.. إنّني أُحِسُّ بِأَنَّهُ أَخٌ حقيقيٌّ رَغْمَ عَدَمِ الْتِقائي بِهِ لِكَثْرَةِ ما تَذْكُرونَهُ لي في رَسائِلِكُم، وأَرْجو أَنْ يَكونَ مُواظِباً على زِيارَتِكُمْ .. وخِتامَاً، اعلَمْ يا أبي أنا وإنْ لَمْ أَكُنْ في الوَطَنِ، فَالوَطَنُ في قَلْبي!

لَخَّصَ العَمُّ صابر فَحْوى الرِّسالَةِ .. أَمّا الفِقْرَةُ الأَخيرَةُ فَقَدْ قَرَأَها حَرْفِيّاً كَما جاءَتْ في الرِّسالَةِ .. زَفَرَ زَفْرَةً لَمْ نَسْتَطِعْ تَبْريرَها ثُمَّ قالَ مُخاطِباً زَوجَتَهُ المُنْشَغِلَةَ بِتَجْفيفِ دُموعِها:

- سامْعَه يا عَبْلَة! لَقَد جَعَلَتِ الغُرْبَةُ مِنْ رَشيدٍ فَيلَسوفاً !

أَمّا رِهام وسباعي فَقَدْ وَجَدا الأَمْرَ عادِيّاً .

Scanned with CamScanner

لا يَدري سباعي كَمْ مَرَّةً تَعَثَّرَتْ أَشْجارُ الحَدائِقِ وعادَتْ فَاكْتَسَتْ، لكِنَّهُ يَدري أنَّ السِّنينَ تَمُرُّ فاعِلَةً فِعْلَها في البَشَرِ، غَيرَ مُنْتَظِرَةٍ إذْناً مِنْ أحَدٍ. فالقَبْضَةُ الحَديدِيَّةُ الإسرائيلِيَّةُ قَدْ تَراخَتْ لا لِكَرَمِ أخْلاقِ الدَّوائِرِ الحُكومِيَّةِ، بَلْ لِلرُّضوخِ لِلأَمْرِ الواقِعِ الَّذي فَرَضَتْهُ زِيادَةُ عَدَدِ السُّكّانِ العَرَبِ الَّذينَ أصْبَحوا يُعَدّونَ بِمِئاتِ الآلافِ، وبِوِحْدَتِهِمْ بِقِيادَةِ الحِزْبِ الشُّيوعي العَرَبِيّ اليَهودِيّ الأُمَمِيّ الطّامِحِ الى بِناءِ مُجْتَمَعٍ إنْسانِيٍّ مَبْنِيٍّ على مَبْدَإِ الحَقِّ لِلْجَميعِ في العَيْشِ المُشْتَرَكِ والمُساواةِ بَيْنَ الشَّعْبَيْنِ اليَهودِيِّ والعَرَبِيِّ، وكُلِّ مَنْ يَعيشُ على هذهِ البُقْعَةِ مِنَ الأرْضِ؛ وكانَ الى جانِبِ الحِزْبِ أحْزابٌ أُخْرى قامَتْ بِدَورِها حَسَبَ قَناعاتِها، وعلى طَريقَتِها .. فَدَخَلَتْ الكَهْرَباءُ القُرى وكَذلِكَ المِياهُ، ودَخَلَ التِّلِفونُ والتِّلِفزْيونُ الى كُلِّ بَيتٍ، وتَحَسَّنَتْ الأحْوالُ المَعيشِيَّةُ لِلنّاسِ لانْفِتاحِ أبْوابِ العَمَلِ بِمُخْتَلَفِ مَجالاتِهِ أمامَهُمْ لِحاجَةِ أرْبابِ المَصانِعِ والشَّرِكاتِ لِلأيدي العامِلَةِ الرَّخيصَةِ، وخَرَجَتِ الفَتَياتُ مِنَ المَخادِعِ الى العَمَلِ، خاصَّةً في المَخابِطِ، وأخَذَتِ المَدَنِيَّةُ طَريقَها الى القُرى العَرَبِيَّةِ، فَاتَّسَعَتِ الشَّوارِعُ، وارْتَفَعَتِ الدّورُ الحَديثَةُ، وكَثُرَتِ الحَوانيتُ، ونَشِطَتِ السِّياحَةُ..... تَطَوُّرٌ هائِلٌ يَتَجانَسُ بِلا شَكٍّ مَعَ التَّطَوُّرِ العالَمِيِّ الَّذي طَرَأَ في العِقْدَينِ الأخيرَينِ مِنَ القَرْنِ العِشْرينَ .. ولَمْ يَعُدْ غَريباً أنْ يَشْغَلَ العَرَبِيُّ

الوَظائِفَ في شَتّى الدَّوائِرِ الحُكومِيَّةِ على ضَوءِ هذا الواقِعِ الجَديدِ .. ولَمْ يَعُدْ مُسْتَهْجَناً أنْ يُسْمَعَ صَوتُ النّائِبِ العَرَبِيِّ في البَرْلَمانِ الإسْرائيلي .. ولَيسَ غَريباً أنْ يَتَوَزَّعَ الصَّوتُ العَرَبِيُّ بَيْنَ أحْزابٍ عَرَبِيَّةٍ ظَهَرَتْ الى جانِبِ الحِزْبِ الشُّيوعِيِّ؛ لَكِنَّ الغَريبَ في الأمْرِ أنْ يُصْبِحَ التَّنافُرُ بَيْنَ هذهِ الأحْزابِ أكْثَرَ مِنَ التَّوافُقِ بَيْنَها .. مِمّا أثَّرَ سَلْباً على النّاسِ فَرَأَوا في يَومِ الانْتِخاباتِ العامَّةِ يَومَ فُرْقَةٍ واخْتِلافٍ، والأغْرَبُ مِنَ الغَريبِ أنْ يُصْبِحَ لِلأحْزابِ الصُّهْيونِيَّةِ نَصيبٌ وافِرٌ مِنَ الصَّوتِ العَرَبِيِّ. لكِنَّ الجُرْحَ يَزْدادُ عُمْقاً في الانْتِخاباتِ لِلْمَجالِسِ المَحَلِّيَّةِ، فَقَدْ أعادَتْنا قَبائِلَ تَأكُلُ بَعْضُها، والعَشيرَةُ الكَثيرَةُ العَدَدِ تَبْتَلِعُ القَليلَةَ العَدَدِ، وغَدَتِ الاتِّفاقِيّاتُ المَشْروعَةُ المُعْلَنَةُ لا تَرْفَعُ رَئيساً الى كُرْسِيِّ الرِّئاسَةِ، وحَلَّتِ الانْتِهازِيَّةُ مَحَلَّ الاسْتِقامَةِ عِنْدَ أصْحابِ النُّفوسِ الضَّعيفَةِ، مِمّا جَعَلَ بَعْضَ الشُّيوخِ الحُكَماءِ يَظُنّونَ بِأنَّ ما آلَتْ إلَيهِ الحالُ مُؤامَرَةٌ حُكومِيَّة .. فَفي التَّفْريقِ سِيادَةٌ ..أَلَمْ يُعْلِنوا بِمُساعَدَةِ مُؤَيِّدينَ لَهُمْ في الطّائِفَةِ المَعْروفِيَّةِ أنَّ الدُّروزَ لَيسوا عَرَباً!؟ وفَرَضوا التَّجْنيدَ الإلْزامِيَّ على أبْنائِهِم؟! فَرَضوهُ بِسَنِّ قانونٍ كي يُصْبِحَ رَفْضُ الخِدْمَةِ جِنايَةً يُحاسِبُ عَلَيها القانونُ .. تَبِعَ ذلكَ فَصْلُ المَعاهِدِ التَّرْبَوِيَّةِ المَعْروفِيَّةِ عَنِ المَعاهِدِ العَرَبِيَّةِ، لِيُنْشِئوا أجْيالاً لا انْتِماءَ لَها لِتاريخِها العَرَبِيِّ ..

وتَعودُ الذّاكِرَةُ بِسُباعي الى الوَراءِ، وكانَ لا يَتَعَدّى العاشِرَةَ من عُمْرِهِ يومَ دَخَلَتِ القَرْيَةَ ثُلَّةٌ مِنَ العَسْكَرِ وسَحَبَتِ الدُّفْعَةَ

Scanned with CamScanner

الأولى مِنَ الشُّبّانِ المَطلوبينَ لِلْخِدْمَةِ الإجْبارِيَّةِ وسْطَ بُكاءِ النِّسْوَةِ ولَخْمَةِ الرِّجالِ .. وصَوتُ أُمِّ حُسَين يُلاحِقُ العَسْكَرَ المُبْتَعِدينَ:

- بِرِضاي عَليك يَمَّهْ يا حسين .. السلاح أعْمى .. لا تَقْتُل، ولا تَرجع لي في تابوت .. يا حسين! ارجع لأمك على رجليك! سامع .. على رجليك ..!

ويُعَقِّبُ أبو حسين :

- كُنّا نسمع عن ظُلمِ الأتراكِ والسَّفَربَرلك والرّديف .. وها نَحْنُ الآنَ نَراهُ بِأعْيُنِنا، ونُحِسُّهُ على جلودنا .. !

بَعْدَ سَنَواتٍ قامَتْ مَجْموعَةٌ مِنَ الشُّبّانِ المَعْروفِيّينَ الواعينَ بِتَشْكيلِ لَجْنَةٍ تَرفُضُ التَّجْنيدَ الإجْباريَ وتُطالِبُ بِإلْغائِهِ؛ تَماماً كَما تَرْفُضُ تَدْريسَ المَناهِجِ الدِّراسِيَّةِ، بِفِرْيَةِ أنَّ الدُّروزَ ليسوا عَرَباً ...! كانَتِ اجْتِماعاتُهُمْ تَبْدَأُ بِجِدِّيَّةٍ صارِمَةٍ، وبَعْدَ الجِدِّيَّةِ يَأْتي وَقْتُ التَّنَدُّرِ كَأَنْ يَقولُ أحَدُهُمْ لِصاحِبِ البَيتِ حَيثُ يَكونُ الاجْتِماعُ:

- بِحَياتِكَ ناوِلني شُرْبة ماء دُرزِيّة!

ويَقولُ آخَرُ:

- إكْرَمْ عَلينا بِزَقْلوطَة لَبَنة دُرْزِيّة ورَغيف خُبز صاج دُرزي!

وتَتَوارَدُ التَّعْليقاتُ مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ.. يَخْتِمُها رَئيسُ الجَلْسَةِ بَعْدَ أنْ يَرْسُمَ على وَجْهِهِ جِدِّيَّةً مُصْطَنَعَةً:

- يا شَباب! لَقَدْ جَرى الحَديثُ اليومَ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ،

اعْمَلوا حِساباتِكُمْ على أنَّ الحَديثَ سَيَجْري في الاجْتِماعِ القادِمِ بِاللُّغَةِ الدُّرْزِيَّةِ!

كانَ لِهذِهِ اللَّجْنَةِ أَثَرٌ وتَأْثيرٌ واضِحانِ .. إذْ سُرعانَ ما انْتَشَرَتْ بَينَ الشَّبابِ ظاهِرَةُ التَّهَرُّبِ مِنَ الخِدْمَةِ، وأَصْبَحَ دُخولُ السُّجونِ العَسْكَرِيَّةِ أَمْراً عادِيّاً عِنْدَهُم ..

عوتِبَ أبو نايف لِوُقوفِهِ الى جانِبِ وَلَدِهِ نايف الهارِبِ مِنَ الخِدْمَةِ:

- أنْتَ يا أبو نايف لا شَأْنَ لَكَ في السِّياسَةِ، والتَّهَرُّبُ مِنَ الخِدْمَةِ يَعْني الوُقوفَ مَعَ هَؤُلاءِ اليَسارِيّينَ ضِدَّ الدَّولَةِ .. وأَقولُ لَكَ: ابنُكَ نايف سَوفَ يُسْجَنُ!

ويُجيبُ أبو نايف غَيرَ مُتَنازِلٍ عَنْ روحِهِ المَرِحَةِ حَتّى في المَواقِفِ الصَّعْبَةِ، قالَ :

- يا سيدي المسألة مسألة ضمير.. نَخْدُمُ مَنْ!؟ ولِماذا؟ لِنُحارِبَ أَهْلَنا في لُبْنانَ وسوريا؟ .. ثُمَّ لِيُحْبَسْ ابْني ستّين مَرّه ولا أسمعُ المُؤَبِّنَ يقول: "وترى الملائِكَةَ مِنْ حَولِهِ حافّينَ العَرْشَ "!

***

Scanned with CamScanner

وَرْشَةُ سباعي الَّتي بَدَأَتْ صَغيرَةً أَصْبَحَتْ كَبيرَةً لِصِدْقِ مواعيدِهِ واستِقامَتِهِ وإتْقانِهِ لِصَنْعَتِهِ .. وعلى صُعوبَتِها فَقَدْ أَحَبَّها لِما فيها مِنْ لُقْمَةِ الحَلالِ الَّتي رَبَّاهُ والِداهُ عَلَيها .. وللْحَقيقَةِ فَقَدْ تَحَسَّنَتْ حالَةُ سباعي المادِّيَّةُ، وعاشَ مَعَ عائِلَتِهِ في ضَفْوَةٍ مِنَ العَيشِ فَاشْتَرى سَيّارَتَيْنِ: واحِدَةً لِمُقْتَضَياتِ العَمَلِ وواحِدَةً خاصَّةً لِقَضاءِ حاجاتِهِ، وحاجاتِ والِدَيهِ..وعَلَّقَ أبو ساطي أَحَدُ مُخَلَّفاتِ زَمَنِ الإقْطاعِ في القَرْيَةِ، قالَ:

- عشْنا وشُفْنا ثَورَةَ العَبيدِ على الأَسيادِ! سباعي النّاطور ابن سالِمِ الحَرّاثِ يَمْلِكُ سَيّارَتَيْنِ!

وصَلَتْ لسباعي شَتائِمُ أَبي ساطي، فَقَرَرَ زِيارَتَهُ في بَيتِهِ، قَرَعَ البابَ ولِمُفاجَأَةِ أَبي ساطي وَجَدَ نَفسَهُ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمامَ سباعي، قالَ مُحْرَجاً:

- أَهْلاً.. أَهْلاً سباعي.. تَفَضَّلْ..!

ويَدْخُلُ سباعي باشّاً،يَقولُ مادّاً يَمينَهُ:

- كَيفَ حالُكَ يا عَمّ؟

- الحَمْدُ لِلهِ.. وأَنْتَ يا سباعي؟

- أَنا بِخَيرٍ.. كُنْتُ مارّاً، فقُلْتُ: أُسَلِّمُ على العَمّ أَبي ساطي.. فَما عِنْدَنا هو مِنْ فُضْلَةِ خَيرِكُمْ.. وهَلْ نَنْسى أَنَّ أَبي كانَ أَجيراً عِنْدَكُمْ؟ لا يَنْسى المَعْروفَ إلّا قَليلُ الأَصْلِ..

ويُطْرِقُ أبو ساطي خَجِلاً مُرْتَبِكاً يَبْحَثُ عَنْ كَلِمَةٍ واحِدَةٍ فَلا يَجِدُها.. أَنْقَذَهُ مِنْ وَرْطَتِهِ هذِهِ دُخولُ جارِهِ أَبي لُطْفي عَلَيهِما..وكانا لا يَزالانِ واقِفَيْنِ، فَاعْتَذَرَ سباعي لِأَبي لُطْفي لِضيقِ وَقْتِهِ، وعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْ مُجالَسَتِهِ، وقَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ تابَعَ الحَديثَ الّذي انْقَطَعَ بِدُخولِ الجار، قالَ:

- عَمّ أَبا ساطي.. أَدْري أَنَّ أَبْناءَكَ، لِضيقِ وَقْتِهِمْ لا يَلْتَفِتونَ إِلَيكَ كَثيراً..أَنا وَقْتي بِيَدي.. اعْتَبِرْني واحِداً مِنْهُمْ.. أَنا والسَّيّارَتانِ في خِدْمَتِكَ!

تَرَكَ سباعي المَكانَ، وكانَ أَبو ساطي لا يَزالُ غارِقاً في ذُهولِهِ.. وبَعْدَ أَنْ لَمَّ بَعْضَ شَتاتِهِ، رَحَّبَ بِأَبي لُطْفي، قالَ:

- هَلْ رَأَيتَ امْرَأَةً تَمْسَحُ بَلاطَ بَيتِها مَرَّةً؟

- أَجَلْ..

- أَنا كُنْتُ المَمْسَحَةَ الآنَ بِيَدِ سباعي ابن سالم! وراحَ هُو يَمْسَحُ بي البَلاطَ !

- هَلْ شَتَمَكَ؟!

- لَيتَهُ فَعَلَ لَكانَتْ واحِدَةً بِواحِدَةٍ..

وحَكى لَهُ الحادِثَةَ مِنْ أَوَّلِها.. وكانَ كَلامُهُ يَنْضَحُ أَسَفاً وخَجَلاً!

***

Scanned with CamScanner

لَمْ تَكُنْ المَحْدَدَةُ مَكانَ عَمَلٍ فَقَطْ، بَلْ أَصْبَحَتْ الى جانِبِ ذلكَ مَجْمَعَ المَعارِفِ والأَصْدِقاءِ وحتّى الغُرَباءِ .. ذلكَ لِعَلاقَةِ سباعي الطَّيِّبَةِ مَعَ جَميعِ النّاسِ أَوّلاً، ولِمَوقِعِها على الشّارِعِ الرَّئيسِيِّ في مَدْخَلِ القَريَةِ ثانِياً، فالدّاخِلُ الى القَرْيَةِ والخارِجُ مِنْها قَدْ يَطْرَحُ السَّلامَ على سباعي ويُتابِعُ سَيرَهُ، وقَدْ يَتَوَقَّفُ سائِلاً إيّاهُ عَنْ صِحَّتِهِ وعَنْ عَمَلِهِ، وقَدْ يَتَعَدّى الأَمْرُ الى الجُلوسِ وشُرْبِ كَأسِ ماءٍ بارِدٍ أو فِنجانِ قَهْوَةٍ .. كانَ هذا يُفرِحُهُ كَثيراً لِما في ذلكَ مِنَ اتِّصالٍ مُباشَرٍ مَعَ النّاسِ .. كانَتْ صورَتا ماركس ولينين مَعَلَّقَتَيْنِ على الحائِطِ المُقابِلِ لِلْبابِ، وكَثيراً ما كانَتا مَوضوعَ نِقاشٍ خاصَّةً عِنْدَ الغُرَباءِ الَّذينَ لا يَعْرِفونَ سباعي، ولا يَعْرِفونَ أَنَّهُ شُيوعِيٌّ، وكانَ النِقاشُ،على الأَغْلَبِ شائِقاً مَعَ الّذينَ يَطْلُبونَ المَعْرِفَةَ، ولكنَّهُ كانَ شائِكاً مَعَ الّذينَ يُظْهِرونَ العِداءَ لِأَفْكارِ سباعي لا لِشَيءٍ إلّا لِإِشْهارِ الوَلاءِ لِلدَّولَةِ، وهذهِ بِدَورِها تُحارِبُ الحِزْبَ الشُّيوعي لِأَسْبابٍ يَطولُ شَرْحُها تُلَخَّصُ بِأَنَّها تَطْمَحُ لِأَنْ تكونَ دولَةً رَأْسَماليَّةً ..

سَأَلَهُ أَحَدُ مُرَكِّزي أَحَدِ الأَحْزابِ الصُّهْيونيَّةِ في القَرْيَةِ:

- قُلْ لي يا سباعي يا شُيوعي! كَيفَ تَدَّعي الاشْتِراكِيَّةَ وأَنْتَ مالِكُ هذهِ المَحْدَدَةِ، وسَيّارَتَيْنِ!؟ .....

فَهِمَ سباعي أَنَّ سائِلَهُ لا يَفْقَهُ شَيئاً عَنِ الاشْتِراكِيَّةِ سِوى تِلْكَ المَعْلوماتِ الّتي تُشَوِّهُ صورَةَ الحِزْبِ الشُّيوعي في نَظَرِ بُسَطاءِ النّاسِ، قالَ:

- اعْلَمْ يا فَهيمُ أَنَّ الاشْتِراكِيَّةَ نِظامُ دَولَةٍ، ونَحْنُ لَسْنا في دَولَةٍ اشْتِراكِيَّةٍ حَيثُ تُلْغى المِلْكِيَّةُ الفَرْدِيَّةُ، بَلْ نَحْنُ في دَولَةٍ رَأْسمالِيَّةٍ، والاشْتِراكِيَّةُ لَيسَتْ ضِدَّ أَنْ تَكونَ غَنِيّاً في دَوْلَةٍ رَأْسَمالِيَّةٍ شَرْطَ أَنْ يَكونَ غِناكَ مِنْ عَرَقِ جَبينِكَ لا مِنْ عَرَقِ الآخَرينَ .. ما أَقْبَحَ أُولَئِكَ الّذينَ يَكْتُبونَ على واجِهاتِ قُصورِهِمْ "هذا من فَضْلِ رَبّي" والأَوْلى أَنْ يَكْتُبوا " هذا مِنْ فَضْلِ رَبّي وعَرَقِ العامِلِ! "اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يُحِبُّ الفُقَراءَ..ولا يُحِبُّ الّذينَ يُنْقِصونَ مِنْ أَجْرِ العامِلِ لِتَزيدَ أَرْباحُهُم ويَبْنوا قُصورَهُمْ!

- تُسَبِّحُ اللهَ وأَنْتُمُ الشُّيوعِيّينَ، لا تُؤْمِنونَ بِهِ

- بَل نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ هو بَحْرٌ مِنْ نورٍ، وما الأَدْيانُ سِوى أَنْهارٍ وجَداوِلَ مِنْ ذَهَبٍ مُذابٍ تَلْتَقي فيه .. وايمانُنا بِاللهِ يَأْتي عَنْ طَريقِ العَقْلِ .. إنَّ اللهَ مُدَبِّرُ هذا الكونِ، وقَدْ أَعْطانا قَبَساً من نورِهِ هو العَقلُ، والعَقْلُ يَقودُكَ الى الخَيرِ، أَمّا إذا جَنَحْتَ الى الشَّرِّ فَهذا مِنْ فِعْلِ الغَرائِزِ البَهيمِيَّةِ الَّتي تُخَيِّمُ على العَقْلِ في لَحْظَةِ ضَعْفٍ .. ونُؤْمِنُ أيضاً بِأَنَّ البَشَرَ خَطّاؤُونَ، وأَنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ...! ثُمَّ إنَّ أَحَدَ بُناةِ الاشْتِراكِيَّةِ الأَوائِلِ وهو الكاتِبُ العَظيم مَكْسيم غوركي، طَبْعاً أَمْثالُكَ لا يَسْمَعونَ بِهِ! عِنْدَما سُئِلَ عَن وجودِ اللهِ قالَ:

- إذا آمَنْتُمْ بِهِ فَهو مَوجودٌ، وإذا لَمْ تُؤْمِنوا بِهِ فَهو غَيرُ مَوجودٍ .. كَفاكُمْ افْتِراءً عَلَينا!

Scanned with CamScanner

- بَلْ كَفاكَ أَنتَ فَلْسَفَةً وكَلاماً لا يُجْدي نَفْعاً.. أَنْصَحُكَ أَنْ تَنْزَعَ تَيْنِكَ الصّورَتَيْنِ – مُشيراً الى صورَتَي ماركس ولينين – واتْرُكْ حِزْبَكَ .. حِزْبَ الشَّحّاذينَ هذا .. وابحَثْ لَكَ عَنْ حِزْبٍ يُطْعِمُكَ الشَّهْدَا!

- رَحِمَ اللهُ السِّتَّ.. أَتَدْري مَنْ هي السِّتُّ؟ بالطَّبْعِ لا.. إنَّها الخالِدةُ أُمُ كُلْثوم هَلْ سَمِعْتَها وهي تُغَنّي" حُبّ ايهْ اللّي انتَ جاي تقول عَليه!" ومَعَ الاعتِذارِ لِلسِّتِّ أقولُ: " عَسَل ايه اللّي انتَ جاي تقول عَليه!!" نَحْنُ يا أبا عَسَلٍ لا نَبوسُ الأيادي لِنَأْكُلَ بَلْ نُطَرِّقُ الحَديدَ لِذلكَ، وإذا جُعْنا نَنْتَزِعُ لُقْمَتَنا مِنْ شَدْقِ الأَسَدِ انْتِزاعاً!

ضَحِكَ الرَّجُلُ ضِحْكَةً جَوفاءَ، وقالَ :

- واللّهِ لَمْ أَفْهَمْ شَيئاً مِمّا تَقولُ .. ! أَفْهَمُ أَنّني أَعيشُ في دَولَةٍ عَلَّمَتْني أَنَّ الحَياةَ حُظوظٌ وفُرَصٌ، إنْ حانَتْ لَكَ واجِدَةٌ، لا تَسأَل مِنْ أينَ بَلْ اقْتَنِصْها قَنْصاً ..

أَنْهى الرَّجُلُ خِطابَهُ وخَرَجَ .. وقَبْلَ أَنْ يَبْتَعِدَ قالَ سباعي بِلَهْجَةِ رِثاءٍ:

- لا تَحْمِلْ هَمّاً! في الزِّيارَةِ القادِمَةِ سَتَجِدُ صورَةَ هربسل وبن غربون مُعَلَّقَتينِ بَدَلَ ماركس ولينين!

قالَ هذا وقَدْ تَأَكَّدَ أَكْثَرَ مِنْ أَيَّةِ مَرَّةٍ خَلَتْ أَنَّ تَلْيينَ الحَديدِ أَسْهَلُ من تَليينِ بَعْضِ الرُّؤوسِ البَشَرِيَّةِ!!

***

لَمْ يَكُنْ الحَديثُ في المَحْدَدَةِ يَقْتَصِرُ على السِّياسَةِ فَقَطْ، بَلْ كانَ يَدورُ حَولَ شَتّى الأُمورِ .. يَبْدَأُ بِشُؤونِ السّاعَةِ ثُمَّ يَتَنَقَّلُ مِنْ موضوعٍ لِآخَرَ .. فالحَديثُ ذُو شُجونٍ .. وطَبيعِيٌّ جِدّاً أَنْ يكونَ لِلْمُزاحِ نَصيبٌ وافِرٌ .. خاصَّةً إذا حَضَرَ بَعْضُ الأَصْدِقاءِ خَفيفي الظِّلِّ وفي مُقَدِّمَتِهِمْ سَعيد الحِطّينيّ .. وسَعيدٌ هذا مُنْذُ تَهْجيرِهِ مِنْ بَلَدِهِ حِطّين وهو صَديقٌ وَفِيٌّ لِقِنّينَةِ العَرَقِ، كانَ يَشْرَبُ لا لِيَسْكَرَ ولكِنْ كَي يَقْطَعَ الطَّريقَ على الحُزْنِ لِئَلّا يُعَشِّشَ في صَدْرِهِ، كَما كانَ يَقولُ .. ذاتَ يَومٍ كانَ الحَديثُ عنِ العَرَبِ وما آلتْ إلَيهِ حالُهُمْ مِنَ الضَّعْفِ والتَّفَرُّقِ والهَوانِ، بَدْءاً مِنْ ضَياعِ فِلَسْطينَ، مُروراً بِالعدوانِ الثُّلاثيِّ، بِهَزيمَةِ حُزَيرانَ، فَزِيارَةِ السّادات رَئيسِ أَكْبَرِ دَولَةٍ عَرَبِيَةٍ الى البَرْلَمانِ الإسْرائيليِّ، فاجْتِياحِ لُبْنانَ ودُخولِ الجَيشِ الإسْرائيليِّ بَيروت، لِتَكونَ أَوَّلَ عاصِمَةٍ عَرَبِيَّةٍ يَحْتَلُّها الجَيشُ الإسْرائيليُّ!!! الى مُؤْتَمَرِ كامبْ ديفيد .. الى .. الى .. ويُعَلِّقُ أَحَدُهُمْ :

- احْسِبْ يَللّي بْتِحْسِبْ .. العَرَبَةُ تَسيرُ والعَدّادُ شَغّال!

ويُعَقِّبُ آخَرُ:

- كَأَنّا وُلِدْنا في هذا العَصْرِ لِنَعيشَ الهَزائمَ فَقَطْ!

ويُعَقِّبُ آخَرُ:

- بَلْ كَأَنّا وُلِدْنا لِنَطْرُدَ عُلَماءَنا من بَينِنا، أو نَقْتُلَهُمْ قَهْراً أَلَمْ نَقْتُلِ الزَّعيمَ الخالِدَ جَمال عبْد النّاصِر!!

ويَقولُ سباعي ساخِراً

Scanned with CamScanner

- تَتَحَدَّثونَ عَنْ هَزائِمَ وعَنْ طَرْدٍ وعَنْ قَتْلٍ .... أَنْتُمْ مُخْطِؤُونَ .. نَسيتُمْ أَنَّنا قَدْ سَجَّلْنا على العالَمِ انْتِصاراً باهِراً ودَخَلْنا موسوعَةَ " غينيس " كَأَصْحابِ أَكْبَرِ صَحْنٍ حمّص في العالَم!

ويَقولُ المُحامي ناشد:

- يا جَماعَة.. عُمر إسرائيل بِضع عشرات من السّنين وهي الآن تَسيرُ جنباً الى جنب مع الدول الصّناعيّةِ الكبرى وتصنع وتصدّر أحدث ما وصلت اليه التّكنولوجيا .. ونَحن موجودون قبلها بمئات السّنين .. ماذا صنعنا؟ وماذا نصدّر للعالم!؟

ويجيب الأستاذ المتقاعد – وقد فُكّت عُقدةُ لسانهِ بتقاعدهِ:

- كيف لا نصدّر..!؟ نحن نصدّر عقولاً.. العالم المصري الفذّ فاروق الباز لم يجد له مطرحاً بيننا فطار الى أمريكا ليُطيّر سفناً فضائيّة ..

وعَقَّبَ رشدي – وهو خرّيج جامعيّ يبحث عن عمل:

- لا تَنْسَوا العالِمَ المصريَّ الآخرَ أحمد زُوَيل الّذي لم يجدْ مُختبراً صَغيراً في مصر السّادات ومُبارَك، فوجده كَبيراً في أمريكا .. وتفرّد بجائزة نوبل في الكيمياءِ على اكتشافه المعروف ب (الفِمتو)..

ويسأَلُ أَحَدُ الحاضِرين:

- مأ هذا الفمتو!؟

ويُجيبُهُ سباعي:

- إنّه حكايةٌ شرحُها يَطول ..عَرّجْ عَلَيَّ ساعَةَ فَراغٍ لِأَشْرَحَها لَكَ!

والحَديثُ يَدورُ ويَدورُ، وسَعيد الحِطّينيّ لا يَنْبِسُ بِكَلِمَةٍ، مِمّا لَفَتَ انتِباهَ الجَميعِ، إذْ لَيسَ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يَصمُتَ مِثْلَ هذا الصَّمتِ .. قالَ أَحَدُ الحاضِرينَ :

- ما لَكَ يا سَعيد؟ شايفك اليوم غير سعيد ..

ويَهُزُّ سعيد رَأْسَهُ مَرّاتٍ.. حَرَكَةٌ يَقومُ بِها في حالَةِ عَدَمِ رِضاهُ، ويَقولُ:

- انتو اليوم زي البازق لفوق .. ماسكين شلّ العرب .. العرب يا جماعة وصلوا القمر قبل الرّوس والأمريكان .. وصالح ابن أم صالح طلع على القمر قبل الأَمْريكيّ" ارمسترُنغ "!

ويَصْمُتُ إزاءَ الضَّجيجِ الّذي علا مِن بَعْضِ الحاضِرينَ وقدْ أَدْرَكوا ما يَرمي إلَيهِ سَعيد .. فَزَوجَةُ صالِح ابن أُم صالح اسْمُها قَمَر!!

وطَرائِفُ أَبي نايف- إنْ تَواجَد- تكونُ عادَةً مِسْكَ الخِتامِ، قالَ: اسْمَعوا يا جَماعَةُ نُكْتَةَ الأُسْبوعِ.. صَعِدَ أَبو الفَضْلِ الباصَ بِشارِبَيهِ الأَعْقَفينِ، وزِيّهِ العَرَبِيّ، وما إنْ جَلَسَ حَتّى أَخْرَجَ سُبْحَتَهُ الّتي لا تُفارِقُهُ وراحَ يُقَلِّبُها بَينَ أَصابِعِهِ.. لَمْ يَلْبَثِ الباصُ أَنْ تَوَقَّفَ في المَحَطَّةِ التّالِيَةِ، وصَعِدَ مُسافِرٌ يَهودِيٌّ وجَلَسَ مُشارِكاً أَبي الفَضْلِ في مَقْعَدِهِ..وأبو الفَضْلِ ساهٍ عَمّا حَولَهُ يَتَلَهّى بِسُبْحَتِهِ دونَ أَنْ يَنْتَبِهَ الى أَنَّ اليَهودِيَّ، شَريكَهُ في المَقْعَدِ يُراقِبُهُ: ولِمُفاجَأَتِهِ نَتَرَ هذا السُّبْحَةَ مِنْ يَدِهِ، ومِنْ غَيرِ سابِقِ مَعْرِفَةٍ، وراحَ

Scanned with CamScanner

يَعُدُّ خَرَزاتِها، وبَعْدَ أنْ أنْهى العَدَّ أعادَها الى أبي الفَضْلِ قائِلاً بِغَضَبٍ: خُذْ! فيها ثَلاثٌ وثَلاثونَ خَرَزَةً! ظَنّاً مِنْهُ أنَّ أبا الفَضْلِ يَعُدُّ خَرَزاتِ السُّبْحَةِ في كُلِّ مَرَّةٍ يُخْطئُ العَدَّ!!

وتَتَعالى الضَّحِكاتُ مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ.. ويُعَقِّبُ سباعي قائِلاً: تَثاقُفُ الشُّعوبِ أمْرٌ مَشْروعٌ، ويَكونُ إيجابِيّاً في أغْلَبِ الأحْيانِ..وعَمّا قَليلٍ سَتَرى الهَودِيَّ يَأْخُذُ عَنّا عادَةَ حَمْلِ السُّبِحَةِ مِثْلَما أخَذَ عَنّا صَحْنَ الحِمَّصِ والأرجيلَةِ!

10

تَفاجَأ سباعي بِرِهام تَقِفُ على بابِ المَحْدَدَةِ، قالَتْ :

- مُرَّ عَلينا يا سباعي مَساءً

- خير يا رهام؟

- كُل خير السّاعَة الثّامِنة .. لا تَنْسَ .

قالَتْ هذا وتابَعَتْ طَريقَها تارِكَةً سباعي فَريسَةً لِأفْكارٍ جَعَلَتْهُ يُغْلِقُ مَحْدَدَتهُ باكِراً .. لا شَكَّ أنَّ أمْراً ما هامّاً حَدَثَ في بَيتِ العَمِّ صابِر .. لا ..لا.. أيُّ شَيءٍ يُمْكِنُ أنْ يَحْدُثَ؟

يا لَلإنْسانِ ما أغْرَبَهُ مِنْ مَخْلوقٍ ! تُرى لِماذا يَحْسِبُ الشَّرَّ قَبْلَ أنْ يَحْسِبَ الخَيرَ؟ نَحْنُ - العَرَبَ – بِالذاتِ ما سَمِعْنا خَبَراً أو تَسَلَّمْنا رِسالَةً إلّا وبَنْتابُنا قَلَقٌ لا يُدْرَكُ تَفْسيرُهُ، والأرْجَحُ أنَّ هذا شُعورٌ مُتَوارَثٌ أباً عَنْ جَدٍّ لِما قاساهُ الأجْدادُ مِنْ حُكوماتٍ ظالِمَةٍ تَعاقَبَتْ احْتِلالَ هذهِ البِلادِ مِنْ غَزَواتِ الاسْكَنْدَرِ الكَبيرِ الى يومِنا هذا.. وكَأنَّ حُكْمَ هذِهِ البِلادِ حَرامٌ على أهْلِها! ولَيسَ صُدْفَةً أنْ يُشاعَ بَيْنَ الفَلّاحينَ، وهُمْ الشَّريحَةُ الاجْتِماعِيَّةُ الأكْثَرُ مُعاناةً، المَثَلُ القائِلُ: لا يَأْتي مِنَ الغَرْبِ ما يَسُرُّ القَلْبَ!

السّاعَةُ الثّامِنَةُ مَساءً .. وَمَنْ أكْثَرُ مِن سباعي يَحْتَرِمُ المَواعيدَ؟ قَرَعَ البابَ، كَعادَتِهِ، ودَخَلَ .. كانَ العَمُّ صابِر يَجْلِسُ كَعادَتِهِ على الكَنَبَةِ المُتَآكِلَةِ الأطْرافِ، والى جانِبِهِ جَلَسَ شابٌّ

Scanned with CamScanner

قَسيمٌ أنيقٌ .. وكانَتْ العَمَّةُ أُمُّ رَشيد تَجْلِسُ مَعَ رِهام في الجِهَةِ المُقابِلَةِ .. وبَعْدَ أنْ أخَذَتْ طُقوسُ التَّعارُفِ حَقَّها قالَ العَمُّ صابِر:

- الأُسْتاذُ نَديم مِن عائِلةِ عَوّاد من القرنةِ المُجاوِرَةِ جاءَ يَطْلُبُ يَدَ رِهام ..

إزاءَ صَمْتِ سباعي، تابَعَ العَمُّ صابِر:

- الأُسْتاذُ نَديم مُحامٍ ناجِحٌ .. مَعْرِفَتي بِأَهْلِهِ قَديمَةٌ .. إنَّهُ مِنْ بَيتٍ شُيوعِيٍّ عَريقٍ ..

ويَمُدُّ سباعي يُمْناهُ مَعَ ابْتِسامَةٍ مُحَبَّبَةٍ:

- أَهْلاً بِالرَّفيقِ نَديم! على كَنْزٍ مِنَ الأَخْلاقِ وَقَعْتَ ..

وقَبْلَ أنْ يَرُدَّ الأُسْتاذُ نَديم على اسْتِقْبالِ سباعي النّاعِمِ، تابَعَ العَمُّ صابِر:

سباعي بِالنِّسْبَةِ لَنا ابنُ بَيت .. سَوفَ تَتَعَرَّفُ عَليهِ، وسَتَرى فيهِ أَخاً مُحِبّاً، ورَفيقاً صُلْباً ..

شَرِبوا قَهْوَةَ العَمَّةِ أُمِّ رَشيد المُمَيَّزَةَ في جَوٍ مِن الانبِساطِ، لا في جَوٍ من بروتوكولاتِ التَّعارُفِ الّذي تَمَّ بِالوِفاقِ وبِرِضى الحاضِرينَ.

في طَريقِ عَودَتِهِ ساوَرَتْهُ أَفْكارٌ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُها.. رِهام .. يا رِهام ..! أَيُّها المَطَرُ النّاعِمُ الّذي يَسْقُطُ على قَلْبي فَيُرْوي أَمانِيَّ الذّاوِيَةَ ويَغْرِسُ آمالاً أُخرى جَديدَةً! كَمْ مَرَّةً تَساءَلَ : أَيُّ حُبٍّ هذا الّذي يُحِسُّهُ تِجاهَها!

حَقيقَةً إنَّهُ يُحِبُّها حُبَّ الأَخِ لِلْأُخْتِ .. وفي نَفْسِ الوَقْتِ يَرى فيها الأُنْثى الّتي يَسْعدُ حينَ يَكونُ بِقُربِها .. وها هي ذي تُخْطَبُ. وعَمّا قَريبٍ سَوفَ تَنْتَقِلُ ليسَ الى بَيتٍ جَديدٍ فَقَطْ بَلْ الى قَرْيَةٍ أُخرى .. تارِكَةً وَراءَها وَحْشَةً لا تُطاقُ .. وحينَ تَخَيَّلَ السَّهَراتِ مَعَ العَمِّ صابِر والعَمَّةِ أُمِّ رَشيد مَعَ حُبِّهِ لَهُما، وانْبِساطِهِ بِوُجودِهِ مَعَهُما، بِدونِ رِهام تَمَنّى لَو أَنَّهُ يَسْتَطيعُ البُكاءَ... البُكاءُ على مَنْ!؟ على نَفْسِهِ وعلى رِهام وعلى العَمِّ صابر والعَمَّةِ زَوجَتِهِ وحَتّى على رَشيد في غُرْبَتِهِ!.. ولَعَنَ الحَياةَ مَرّاتٍ ومَرّاتٍ بِإحْساسِ الضَّعيفِ العاجِزِ أَمامَها .. كَمْ أُمْنِيَّةً تَمَنّاها وُلِدَتْ مَيِّتَةً لِأَنَّ المُجْتَمَعَ يَرْفُضُها، بَلْ يَلْفُظُها لَفْظَ النَّواةِ .. إنَّها لا تُعَدُّ ولا تُحْصى! ولا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ .. فما دُمْتَ حَيّاً سَتَظَلُّ حَياتُكَ لَوحاً يَخُطُّ عَلَيهِ المُجْتَمَعُ ما يُريد، .. فَاقْنَعْ يا سباعي بِما لَدَيكَ .. رِهام لَيسَتْ لَكَ .. رِهام لَيسَتْ لَكَ ..وقَدْ قالَتْها أُمُّها بِبَراءَةِ طِفْلٍ: لو كُنْتَ على دينِنا لَزَوَّجْناكَ رِهام !

كانَ قَد وصَلَ بَيتَهُ .. كانَ والِداهُ وأَخوهُ سامح قَدْ ناموا تَحَسَّسَ طَريقَهُ الى سَريرِهِ في الظَّلامِ الّذي رَأى فيهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ صَديقاً ..إنَّهُ سِتارُ الوُجوهِ الفاضِحَةِ لِما في القُلوبِ الموجَعَةِ.

في اليومِ التّالي مَرَّتْ رِهام على مَحْدَدَةِ سباعي، قالَتْ مازِحَةً:

- ما رَأْيُكُمْ دامَ فَضْلُكُمْ؟

- شابٌّ ظَريفٌ ولَطيفٌ وابن ناس.

Scanned with CamScanner

قالَها باسِماً، لَكِنَهُ في سَريرَتِهِ كانَ يَتَمَنّى لو يَكونُ الأَمرُ كَذلِكَ. فالحُكْمُ لا يَكونُ سَليماً بِجَلْسَةٍ واحِدَةٍ!

- مُوافَقَتي يا عَزيزي بَعْدَ مُوافَقَتِكَ

- أَنْتِ تُحَمِّلينَني حِمْلاً فَوقَ طاقَتي .. إِنَّهُ زَواجٌ يا رِهام والقَرارُ لَكِ

- بِالمَحَبَّةِ الَّتي بَينَنا صارِحْني .. أَرجوكَ!

- أَقولُ: مَبْروك، إِنَّهُ شابٌ لا عَيبَ فيهِ .. قَسيمٌ ومُثَقَّفٌ ومِنْ بَيتٍ شُيوعِيٍّ عَريقٍ .. شابٌ بِهذِهِ الصِّفاتِ، السَّعادَةُ مَعَهُ تَكونُ مُتَوَقَعَةً..

حينَ غادَرَتْ رِهام أَحَسَّ أَنَّ هذِهِ الثِّقَةَ لا تَكونُ الّا بَينَ أَخٍ وأُختٍ.

١١

لَمْ تَطُلْ خِطْبَةُ رِهام، خاصَّةً بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفَتْ على طِباعِ خَطيبِها مُسْتَشِفَّةً مِنْ حَديثِهِ الصِّفاتِ الَّتي تُحِبُّ أَنْ يَتَّصِفَ بِها، على رَأْسِ هذِهِ الصِّفاتِ سَماحَةُ النَّفْسِ والمُروءَةُ. وقَدْ لَمَسَتْها فيهِ. فَلِمَ الإِطالَةُ والمُحامي نَديم قَدْ أَعَدَّ الدّارَ وتَوابِعَها قَبْلَ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ على فَتاةٍ يَبْني بِها .. ودَّعَتْ صَديقاتِها باكِيَةً كَعادَةِ العَرائسِ في قُرانا، وحينَ وَدَّعَتْ والِدَيها تَحَوَّلَ بُكاؤُها الى عَويلٍ أَبْكَى جَميعَ النِّساءِ المُتَحَلِّقاتِ حَولَها، وبَكى العمُّ صابِر، وبَكَتِ العَمَّةُ أُم رَشيد وهي توصيها بِأَنْ تَكونَ الزَّوجَةَ الصّالِحَةَ، وأَنْ تَكونَ فَخْراً لِأَهْلِها في غُرْبَتِها .. ولَيسَ بَعيداً وَقَفَ سباعي يُكَتِّمُ حُزْنَهُ بِابْتِسامَةٍ مُغْتَصَبَةٍ، وعِنْدَما أَصْبَحَتْ بِمُحاذاتِهِ قالَ بِصَوتٍ حاوَلَ أَنْ يَكونَ مُشَجِّعاً:

- مَعَ السَّلامَةِ يا رِهام! مَعَ السَّلامَةِ يا أُخْتي الَّتي لَمْ تَلِدْها أُمّي .. احْفَظِي ما أَوصَتْكِ بِهِ العَمَّةُ أُمُّ رَشيد ..

نَظَرَتْ اليهِ نَظْرَتَها المُحَبَّبَةَ الَّتي يَعْهَدُها بِها، وهَزَّتْ رَأْسَها كَأَنَّها تَقولُ لَهُ سَمْعاً وطاعَةً ..!

اتَّجَهَتْ رِهام نَحْو سَيّارَةِ المَرْسيدِس المُزَيَّنَةِ الَّتي سَتُقِلُّها الى بَيتِها الجَديدِ وَسْطَ التَّصْفيقِ والزَّغاريدِ والصَّبايا حَولَها يُغَنّينَ أُغْنِيَةَ فَريد الأَطْرَشِ الخالِدِ:

دُقّوا المَزاهِر يَلّلَه يا اهل البيت تَعالوا

Scanned with CamScanner

جَمَّع ووفّق والله
صَدَقوا اللّي قالوا....
أمّا سباعي فوجَدَ نَفسَهُ يُرَدّدُ في سِرّهِ أُغنِيَّةً أُخرى لِفَريد:
سافِرْ مع السّلامة
ترجع لنا بِالسَّلامة....

مَعَ أنَّ أُمَّ رَشيد كانَتْ عاتِبَةً على ابْنِها رَشيد لِاعْتِذارِهِ عَنِ المَجيءِ بِسَبَبِ أعْمالِهِ الكَثيرَةِ ، إلّا أنَّها في ساعَةٍ مُتَأخِّرَةٍ مِنَ اللَّيلِ اتَّصَلَتْ بِهِ تُخْبِرُهُ كَمْ كانَ العُرْسُ راقِياً .

***

بَعْدَ زَواجِ رِهام صارَ بَيتُ العَمِّ صابِر أقَلَّ أُنْساً، فالعَمَّةُ أُمُّ رَشيد تَظَلُّ مُنْهَمِكَةً بِأعْمالِها المَنْزِليَّةِ الّتي تَضاعَفَتْ بِخُروجِ رِهام مِنَ البَيتِ، وإذا ما خَرَجَتْ يكونُ خُروجُها لِلتَّسَوُّقِ، أو لِزِيارَةِ بَعْضِ الصَّديقاتِ .. والعَمُّ صابِر قَلَّما يُرى بِدونِ جَريدَةٍ في يَدِهِ أو بِدونِ كِتابٍ .. فَبَعْدَ عُمْرِهِ الطَّويلِ، وتَجْرِبَتِهِ الحَياتِيَّةِ والحِزْبِيَّةِ أصْبَحَ عَمَلُهُ الحِزْبِيُّ مَقْصوراً على المُحاضَراتِ الّتي يُلْقيها في نَوادي الحِزْبِ على الرِّفاقِ، خاصَّةً الجُدُدَ مِنْهُمْ: الى جانِبِ مَقالاتٍ ثَقافِيَّةٍ جُلُّها في التَّحْليلِ السِّياسِيِّ يَنْشُرُها في جَريدَةِ الاتِّحادِ الحيفاويةِ النّاطِقَةِ بِلِسانِ الحِزْبِ الشُّيوعِيِّ .. وزِياراتُ

سباعي المُعْتادَةُ لِلْعَمِّ صابِر ظَلَّتْ على حالِها، لا بَلْ زادَتْ لِحاجَتِهِ لَهَا، ولِحاجَةِ العَمِّ صابر الى وَنيسٍ في ساعاتِ راحَتِهِ .. أمّا زِياراتُ رِهامٍ لِوالِدَيها بِرِفْقَةِ زَوجِها والّتي بَدَأَتْ مُتَقارِبَةً أصْبَحَتْ رَهينَةَ الظُّروفِ .. خِلالَ هذِهِ اللِّقاءاتِ لاحَظَ سباعي أنَّ رِهام سَعيدَةٌ في زَواجِها، وهذا ما أفْرَحَهُ كَثيراً. والحَقُّ يُقالُ إنَّ المُحامي نَديمَاً شابٌّ الى جانِبِ قَسامَتِهِ يَمْتازُ بِشَخْصِيَّةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ القُوَّةِ وبَيْنَ لَباقَةٍ في الحَديثِ، وخِفَّةٍ في الرّوح وهو ناجِحٌ في عَمَلِهِ، وصادِقٌ في حِزْبِيَّتِهِ

وسباعي الّذي كَتَّمَ حُبَّهُ لِرِهام . ماذا يُريدُ لَها أكْثَرَ مِمّا هيَ فيهِ مِنْ سَعادَةٍ !؟ إنَّهُ سَعيدٌ حَقّاً لِرُؤْيَتِها سَعيدَةً مَعَ شَريكِ حَياةٍ كَنَديمٍ .. المُحِبُّ الحَقيقِيُّ يَسْعَدُ لِسَعادَةِ الحَبيبِ حَتّى لو كانَتْ تِلْكَ السَّعادَةُ مَعَ غَيرِهِ. كَمْ كانَ الموسيقار محمد عبد الوهّاب صادِقاً وهو يُرَدِّدُ كَلِماتِ الشّاعِرِ الغِنائي المِصْري المَوهوب حسين السَّيِّد " وعشْق الرّوح ما لوش آخِر، لكن عشق الجَسد فاني". قالَها سباعي في سِرِّهِ وصورَةُ الفَنّانِ الخالِدِ نجيب الرّيحاني يَشْرَقُ بِدُموعِهِ لِسَماعِها في فيلم
(غَزَلُ البَناتِ) مَعَ الخالِدَةِ لَيلى مُراد ..

Scanned with CamScanner

12

دَخَلَ سباعي على العَمِّ صابِر، كَعادَتِهِ، بَعْدَ يَومِ عَمَلٍ شاقٍّ في تَليينِ الحَديدِ ورُؤوسِ بَعْضِ البَشَرِ المَنْحوتَةِ مِنْ صَخْرٍ، فَبادَرَهُ العَمُّ صابر قائلاً:

- بُشْرى سارَّةٌ يا سباعي!

ويَنْظُرُ سباعي الى العَمِّ صابر ويَقولُ:

- لا عَجَب .. فَفي كُلِّ زِيارَةٍ لَكَ تُنْجِفُني بِشَيءٍ جديدٍ

- إلّا هذِهِ .. فَهي فوقَ كُلِّ مَرَّة ..أنتَ تَعْلَمُ أنَّهُ بِالإتِّفاقِ مَعَ المَكْتَبِ السِّياسِيِّ واللَّجْنَةِ المَرْكَزِيَّةِ لِلحِزْبِ مَعَ دُوَلِ المَنْظومَةِ الاشْتِراكِيَّةِ قَدْ وَفَّرَتْ كُلُّ دَولَةٍ مِنَحاً دِراسِيَّةً لِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ مِنْ طُلّابِنا يُنْهونَ دِراساتِهِمُ الجامِعِيَّةَ فيها على حِسابِ الدَّولَةِ المانِحَةِ بِدونِ قَيدٍ أو شَرْطٍ سِوى أنْ يَكونُوا خَلوقينَ وناجِحينَ .. ها قَدْ ضَمِنْتَ لِأَخيكَ دِراسَةً جامِعِيَّةً مَجّانِيَّةً.

كانَتْ فَرْحَةُ سباعي غامِرَةً، وأحَسَّ أنَّ غُمَّةً في صَدْرِهِ قَدِ انْقَشَعَتْ. فَأَخوهُ سامِح قَدْ أنْهى دِراسَتَهُ الثّانَوِيَّةَ ويُريدُ مُواصَلَةَ دِراسَتِهِ؛ والجامِعاتُ الإسْرائِيلِيَّةُ بِفُيودِها الكَثيرَةِ لا تَقْبَلُ إلّا عَدَداً مُحَدَّداً مِنَ الطُّلّابِ العَرَبِ، خاصَّةً لِلْمواضيعِ العِلْمِيَّةِ، ناهيكَ عَنْ تَدَخُّلِ رِجالِ الأَمْنِ في اخْتِيارِ الطُّلّابِ، وفَرْضِ شُروطِهِم، وشُروطُهُمْ مَعْروفَةٌ، أقَلُّها الابْتِعادُ عَنِ الشُّيوعِيّينَ، وعَنِ

القَوْمِيّينَ العَرَبِ؛ وأكْثَرُها بَلْ وأقْبَحُها أنْ يَنْضَووا تَحْتَ ذَيلِ السُّلْطَةِ ، لا تَحْتَ جَناحِها!

زَفَّ سباعي الخَبَرَ السَّعيدَ هذا الى والِدَيهِ، قالَ :

- أبْشِرا أيُّها العَجوزانِ المُبارَكانِ .. سامِح سَيُواصِلُ دِراسَتَهُ الجامِعِيَّةَ إنْ شاءَ اللهُ.. ويَتَهَلَّلُ وَجْهُ الوالِدِ، ويَقولُ:

- الحَمْدُ لِلهِ .. كيفَ؟

- في الخارِجِ

وتَحُلُّ الجَهامَةُ بَدَلَ البَشاشَةِ في وَجْهِ الوالِدِ، يَسْأَلُ :

- أينَ في الخارِجِ ؟

- لَمْ أعْرِفْ بَعْدُ .. ما أعْرِفُهُ أنَّهُ سَيَكونُ في إحْدى الدُّوَلِ الشُّيوعِيَّةِ ..

وتَتَدَخَّلُ الوالِدَةُ ناظِرَةً نَظْرَاتٍ مُبْهَمَةً:

- ماذا أسْمَعُ يا سباعي؟! ما عادَ في قلوبكم رَحْمة! من أينَ سَيَأْتي النَّومُ الى عَيْنَيّ، وعقلي وقلبي مع سامح هناك. لا أهل ولا أقْرِباء ولا أصدقاء .. ويا عيني لا أعْرف أين ينام وماذا يَأكل.. يقولونَ هناك يَأكلونَ الملوخيّة ولَحمَ الخَنازير..

ويَضْحَكُ سباعي.. حَتّى والِدُهُ القَلِقُ على مَصيرِ ابنِهِ ضَحِكَ أيضاً..

- لا تَقْلَقي يا أُمّي، هُناكَ بَشَرٌ مِثْلُنا، وسَيَجِدُ أصْدِقاءَ كَثيرينَ .. الدَّولَةُ هُناك هي الأَبُ وهي الأُمُّ وهي الأَهلُ .. ثُمَّ إنَّ التَّعْليمَ هُناكَ على حِسابِ الدَّولَةِ..

Scanned with CamScanner

وبهذا حُسِمَ الأَمْرُ .. وفي المَوعِدِ المُعَيَّنِ حَزَمَ سامِحٌ حَقائِبَهُ، وطارَ فَرَحاً قَبْلَ أَنْ تَطيرَ الطّائِرَةُ بِهِ ..وفي المَطارِ إلتَقى بطُلّابٍ آخَرينَ وقَدْ أَخبَرَهُم الرَّفيقُ المَسْؤولُ عَنِ الدُّوَلِ الَّتي سَيَتَعَلَّمونَ فيها: فَمِنْهُم مَنْ سَيَحُطُّ في الاتِّحادِ السّوفييتي ومِنهُم سَيَحُطُّ في بُلغاريا ومِنْهُمْ في أَلمانيا الدّيمُقْراطِيَّةِ، أَمّا الّذينَ سَيَحُطّونَ الرِّحالَ في تْشيكوسلوفاكيا فَقَدْ سَمِعوا ما يَكْفيهِمْ مِنْ تَنَدُّرٍ لِطولِ الاسمِ ..

قالَ أَحَدُهُمْ لِعامِرِ المُسافِرِ الى تشيكوسلوفاكيا :

- قُلْ لي يا عامِر، كُنْتَ مُتَفَوِّقاً في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، كَيفَ تُعْرِبُ كَلِمَةَ تشيكوسلوفاكيا إذا باغَتَتْكَ في جُمْلَةٍ؟

ويُعَلِّقُ آخَر:

- بَلْ هي جُمْلَةٌ..ولكِنْ هلْ هي جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ أَمْ اسْمِيَّةٌ؟

ويُعَقِّبُ ثالِثٌ:

- لَعَلَّهُ مَعَ طولِ مُدَّةِ الدِّراسَةِ سَيَكْتَشِفُ أَنَّها تَحْتَوي على فِعْلٍ وفاعِلٍ ومَفْعولٍ ..

ويَقْطَعُ الرَّفيقُ الحِزْبِيُّ المُرافِقُ الحَديثَ :

- بَلْ تَحْتَوي على أَجْمَلِ بَناتِ أوروبّا.. اسْتَعِدّوا لِلإقْلاعِ

عِنْدَما حَطَّتِ الطّائِرَةُ في مَطارِ بودابست تَرَجَّلَ سامِح مَعَ طالِبَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ، مِنَ الطّائِرَةِ، وكانَ في اسْتِقْبالِهِمْ جَمالُ هُنْغاريا، ومَنْ سَيوصِلُهُمْ الى الجامِعَةِ .

أَمّا سُعادُ فَقَدْ أَنْهَتْ دِراسَتَها الجامِعِيَّةَ وحَصَلَتْ على شَهادَةِ b.a في التَّمْريضِ؛ ثُمَّ واصَلَتْ دِراسَتَها لِسَنَتَيْنِ إضافِيَّتَيْنِ تَخَصَّصَتْ فيهِما بِالتَّوليدِ كَي تَعْمَلَ في قِسْمِ الوِلادَةِ في المُسْتَشْفى، وهذا ما حَدَثَ ..

***

في صَباحٍ يَومٍ نَدِيٍّ، دَخَلَ سباعي على والِدَتِهِ مَصَبِّحاً:

- صَباحُكِ نَدِيٌّ كَهذا الصَّباحِ النَّدِيِّ يا أَعْظَمَ سَليمَة في الوُجودِ ..

قالَتْ بِعَدَمِ اكْتِراثٍ:

- لَو كُنْتُ في نَظَرِكَ كَذلِكَ لَكُنْتَ سَمِعْتَ كَلامي مِنْ سِنينَ وأَفْرَحْتَ قَلْبي .. فَهِمَ سباعي قَصْدَها، داعَبَها قَليلاً وقالَ:

- ما تُريدينَهُ لي يا أُمّي يَأْتي بِالقِسْمَةِ والنَّصيبِ ..

وتُدْرِكُ والِدَتُهُ أَنَّ كلامَ ابْنِها مِنْ طَرَفِ اللِّسانِ يَقولُهُ لِإرْضائِها فَقَطْ، قالَتْ:

- مِنْ ايمْتَى تُؤْمِنُ بِالقِسْمَةِ والنَّصيب؟ جْيالَك تْزوّجوا، وصار عِنْدُهُمْ أَولاد وبَنات في سِنّ الزَّواج ..! كَفاك يا سباعي .. أَعْذارْك ما عادَت تُقنعني .. مُناي أَشوف بَزْرَك قبل ما تَهيلوا عليّ التّراب ..

Scanned with CamScanner

مَسَحَ دُموعَها بِراحَتَيهِ الجاسِئَتَينِ، وقالَ:

- لا تَشْغَلي بالَكِ يا أُمّي. لا بُدَّ مِنْ أَنْ أَجِدَ الفَتاةَ المُلائِمَةَ سِنّاً وثَقافَةً ..

- وهل ستتزوّجُ ثقافة .. تَزَوّجْ بنت عاقلة وجَميلة وتكون ربّة بيت.

ضَحِكَ سباعي من صَميمِ قَلْبِهِ، قَبَّلَ رَأْسَ والِدَتِهِ وخَرَجَ مُتَّجِهاً نَحْوَ مَحْدَدَتِهِ، وسُؤالٌ يَصولُ ويَجولُ في رَأْسِهِ:

هَلْ سَيَلْتَقي بِفَتاةٍ كَرِهام ويَتَزَوَّجُ يَوماً ما!!؟

الفَصْلُ الثّاني

Scanned with CamScanner

13.

أنهَتْ سُعادُ تَخَصُّصَها وبَدَأَتْ تَعْمَلُ مُوَلِّدَةً في قِسْمِ الوِلادَةِ في المُسْتَشْفى. كانَتْ سَعيدَةً بِعَمَلِها في هذا القِسْمِ بِالذّاتِ، أمّا أُمُّها فَكانَتْ أَكْثَرَ سَعادَةً لِأَنَّ ابْنَتَها عَرَفَتْ كيفَ تَخْتارُ العَمَلَ الأَقَلَّ اخْتِلاطاً بِالرِّجالِ! وأَثْناءَ عَمَلِها تَعَرَّفَ عَلَيها طَبيبٌ يَعْمَلُ في نَفسِ المُسْتَشْفى، ولَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيها أَنْ تَجْمَعَ ما تَوَدُّ أَنْ تَعْرِفَهُ عَنْهُ، قَبْلَ أَنْ تَأْخُذَ قَرارَها بِالرَّفْضِ أَو بِالقُبولِ وقَبْلَ أَنْ تُفاتِحَ والِدَيها بِالأَمْرِ: وحَقيقَةً كانَ شَابّاً راقِيَاً، ومِنْ بَيتٍ مُكافِحٍ كَريمٍ قَبْلَ أَنْ يَكونَ طِبيباً ماهِراً ..المُنَغِّصُ الوَحيدُ في المَوضوعِ أَنَّهُ مِنْ قَرْيَةٍ أُخرى .. وتُوَلْوِلُ الوالِدَةُ:

- يا حَبّة عيني .. غَريبة مثل اختها سُعدى!

ويُعَقِّبُ الأَبُ:

- المُهِمّ يا سَليمة أن تكون البِنت راضِية وسَعيدة.

أَمّا سباعي فَهو كَعادَتِهِ، يَأْخُذُ الأُمورَ بِكُلِّ بَساطَةٍ، قالَ:

- ما على السَّيّارَة غُرْبَة يا أُم سباعي!

أَمّا سامِح فَأَخْبارُهُ لا تَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِهِ بِما يُرْسِلُهُ مِنْ رَسائِلَ، ولا يَنْسى أَنْ يَخْتِمَها بِأَنَّهُ مِنَ المُتَفَوِّقينَ في دِراسَتِهِ

وسباعي يَعْمَلُ في مَحْدَدَتِهِ بِرَغْبَةٍ لا تَفْتُرُ، كَمْ أَحَبَّ هذِهِ المَحْدَدَةَ الّتي أَصْبَحَتْ مَحَطَّ أَنْظارِ الشَّبابِ يَأْتونَهُ وقَدْ أَصْبَحَ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ العَمّ سباعي لِيَسْتَمِعوا الى حَديثِهِ الّذي لا يَسْمَعونَهُ في بَيتٍ أَو في مَدْرَسَةٍ، وكانَ هُوَ يُصْغي الى أَسْئِلَتِهِمْ والى مَشاكِلِهِمْ ويَجِدُ لَها الحُلولَ إِنْ كانَ في إِيجادِ عَمَلٍ لِعاطِلٍ عَنِ العَمَلِ، أَو إِنْقاذِ مُذْمِنٍ مِنْ إِدْمانِهِ بِتَوجيهِهِ الصَّحيحِ وعِلاجِهِ في مَعاهِدَ خاصَّةٍ، أَو زَجْرِهِمْ ومَنْعِهِمْ مِنْ مُخالَفَةِ القانونِ ويُفْهِمُهُمْ أَنَّ المُحافَظَةَ على القانونِ لَيسَ لِاحْتِرامِهِ فَقَطْ بَلْ اتِّقاءً لِأَنْفُسِهِمْ هُمْ مِنْهُ حَتّى قيلَ لَهُ مَرَّةً:

- أَنْتَ يا سباعي كاثوليكيٌّ أَكْثَرُ كاثوليكِيَّةً مِنَ البابا!!

ويَرُدُّ سباعي بِنَفْسِ أُسْلوبِ السُّخْرِيَةِ على القائِلِ:

- حِرْصي يا فَهيم على أَبْنائِنا مِنْ لَحْظَةِ طَيْشٍ، فَتَطالُهُمْ سَطْوَةُ قانونٍ يَحْمِلُ الكَثيرَ مِنَ التَّجَنّي عَلَينا نَحْنُ العَرَبَ، أَمْ تُراكَ صَدَّقْتَ أَنَّ شَتْمَ رَئيسِ الحُكومَةِ يَعْني أَنَّكَ تَعيشُ في دَوْلَةٍ دِيمُقْراطِيَّةٍ؟ إِنَّ أَبْسَطَ مَعاني الدّيمُقْراطِيَّةِ هو أَنْ تَعيشَ بِكَرامَةٍ..لا أَنْ تَشْتُمَ رَئيسَ الحُكومَةِ..

أَمّا أبو قدّوره الّذي أَسَرَّ لَهُ سباعي حينَ كانَ ناطوراً بِأَنْ " زَوِّجْ قدّوره " قالَ لَهُ مُعْجَباً:

- كَمْ أَنْتَ مَحْبوبٌ عِنْدَ الشَّبابِ يا سباعي!!

- عَمّي أبا قدّوره! ضَعْ يَدَكَ على قَلْبِكَ، فَالّذي تُحِبُّهُ يُحِبُّكَ.. هَؤُلاءِ هُمْ رِجالُ المُسْتَقْبَلِ!

Scanned with CamScanner

- ويَقولُ أبو قدّوره لاغزاً:

- يَعْني تُريدُ اَنْ تَجْعَلَ مِنْ هَذِهِ القَريَةِ رُؤوساً حَمْراءَ..

- لا إكْراهَ في الدّين، ولا إكْراهَ في المَبْدَإ يا

عَمُّ.. قَدَرُنا نَحْنُ ذَوي الرُّؤوسِ الحَمْراءِ- كَما تَقولُ – أَنْ نَمُدَّ الجُسورَ لِيَعْبُرَ مَنْ شاءَ العُبورَ.. والعابِرونَ هُمُ الرّابِحونَ!

- لَعَلَّكَ تَطْمَحُ في أَنْ تُصْبِحَ رَئيساً لِلْمَجْلِسِ المَحَلّيّ يوماً!

- سامَحَكَ اللهُ يا عَمُّ! أنا أَطْمَحُ في أَنْ نَعيشَ في مُجْتَمَعٍ تَنْويريّ..لَيسَ أَكْثَرَ!!

***

بَعْدَ العَمَلِ: اعْتادَ سباعي إمّا أَنْ يَكونَ في البَيتِ مَعَ والِديهِ، إذْ لَولا وُجودُهُ مَعَهُما لَأَثْقَلَتْهُما سَنَواتُ العُمْرِ بَعْدَ زَواجِ الأُخْتَينِ وغُرْبَةِ سامِح؛ وإمّا أَنْ يَكونَ بِرِفْقَةِ العَمِّ صابِرٍ في مُهِمَّةٍ حِزْبِيَّةٍ، كَكِتابَةِ المَناشيرِ أو التَّحْضيرِ لِاجْتِماعٍ شَعْبِيّ أو دَعْوَةِ النّاسِ لِلْمُشارَكَةِ في مُظاهَرَةِ احْتِجاجٍ ضِدَّ الغَلاءِ أو ضِدَّ مُمارَساتِ السُّلُطاتِ الإسْرائيلِيَّةِ المُجْحِفَةِ بِحَقِّ المُواطِنينَ العَرَبِ في شَتّى المَجالاتِ، وفي مُقَدِّمَتِها دوائِرُ التَّنْظيمِ والبِناءِ؛ أو دَعْوَةِ النّاسِ الى الاشْتِراكِ بِمَسيرَةِ الأَوَّلِ مِنْ أيّارِ احْتِفاءً بِعيدِ العُمّالِ العالَمِيّ .

كَثيرَةٌ وثَقيلَةٌ هيَ مَهامُّ الحِزْبِ ولكِنَّها خَفيفَةٌ على روحِ مَنْ تَهُمُّهُ الحَياةُ الكَريمَةُ لِبَني البَشَرِ على هَذِهِ الأَرضِ .. ورغْمَ إدْراكِ سباعي العَميقِ لِذَلِكَ إلّا أَنَّهُ كانَ يَضْعُفُ أَحْياناً، وتَعْتَريهِ نَوبَةٌ مِنَ اليأسِ، لكِنَّ العَمَّ صابِر كانَ يُطَيِّبُ خاطِرَهُ، ويَبْتَسِمُ بَسْمَةَ الواثِقِ مِمّا يَقولُ:

- لا تَسْتَعْجِلِ الأُمورَ يا عَزيزي، فَما أَشْبَهَ عَمَلَنا بِعَمَلِ النَّمْلَةِ البَطيءِ.. والتَّغييرُ في المُجْتَمَعِ لا يَأْتي بِكَبْسَةِ زِرّ، ولا يَكونُ إلّا بَعْدَ تَراكُمٍ كَمّيّ يَتَحَوَّلُ الى نَقْلَةٍ نَوعِيَّةٍ .. تَماماً كالّذي يُسَخِّنُ الماءَ على النّارِ، فالتَّراكُمُ الحَراريُّ يَزْدادُ الى أَنْ يَصِلَ الى دَرَجَةٍ مِئَةٍ حَيثُ تَحْدُثُ القَفْزَةُ النَّوعِيَّةُ وهي تَحَوُّلُ السّائِلِ الى بُخارٍ.. هذا هُوَ قَدَرُنا.. العَمَلُ بِلا كَلَلٍ وعَدَمِ فُقْدانِ الأَمَلِ .. ولَو راجَعْتَ تاريخَ حِزْبِنا لَانْدَهَشْتَ مِنْ عَدَدِ الرِّفاقِ الّذينَ يَئِسوا وتَرَكوا الحِزْبَ .. وكانَ سباعي يُصْغي الى العَمِّ صابِر بِكُلِّيَّتِهِ ويُقْسِمُ بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ أَنَّهُ يُفَضِّلُ المَوتَ على أَنْ يَكونَ مِنَ اليائِسينَ!

***

طَرَقَ سباعي بابَ العَمِّ صابِر فَجاءَهُ صوتٌ أُنْثَويٌّ يَأْذَنُ لَهُ بِالدُّخولِ لَطالَما سَمِعَهُ وأَنِسَ لِسَماعِهِ طَوالَ أَيّامٍ خَلَتْ.. إنَّهُ صَوتُ رِهام! دَخَلَ وإذا هُوَ وَجْهاً لِوَجْهٍ أمامَها، عانَقَتْهُ عِناقَ الأُخْتِ لِأَخيها قائِلَةً:

Scanned with CamScanner

- لَكَ وَحْشَةٌ يا سباعي

- وأَنْتِ لَكِ حِسابٌ عَسيرٌ عِنْدي.. سَنَةٌ وأَكْثَرُ لا أَراكِ!

- كُنْتُ لا أَنْقَطِعُ عَنِ السُّؤالِ عَنْكَ ..

- وهَلْ أَخْبارُكِ الَّتي كانَتْ تَصِلُني مِنْ والِدَيكِ تُغْني عَنْ رُؤْيَتِكِ؟!

- ظُروف يا سباعي .. وأَشْهُرُ الحَمْلِ كانَتْ مُتْعِبَةً

- أَعْلَمُ أَنَّكُما رُزِقْتُما صَبِيًّا

- نَعَمْ وأَسْمَيناهُ شَدّاداً ..على اسْمِكَ يا أَخي

ويَلْتَفِتُ سباعي حَولَهُ كَمَنْ يَبْحَثُ عَنْ شَيءٍ:

- بِالحَقِّ .. أَينَ الرَّفيق نَديم؟

- إِنَّهُ خارِجُ البِلادِ بِدَعْوَةٍ مِنْ مُنَظَّمَةِ اليونسكو لِلاشْتِراكِ في مُؤْتَمَرٍ دَوْلِيٍّ لِدَعْمِ حُقوقِ الإِنْسانِ.

- والرَّفيقُ شَدّاد الصَّغير

- إِنَّهُ في غُرفَةِ والِدَي.. في سابِعِ نومَة .

كانَ العَمُّ صابِر والعَمَّةُ أُمُّ رَشيدٍ أَثْناءَ ذلِكَ يُتابِعانِ مُسَلْسَلاً تِلِفِزْيونِيًّا بِشَغَفٍ، مِمّا ساهَمَ ذلِكَ في إِعْطاءِ المَجالِ لِسباعي ورِهام أَنْ يُغَطِّيا أَحْداثَ سَنَةٍ كامِلَةٍ مَرَّتْ دونَ أَنْ يَلْتَقِيا. وقَبْلَ أَنْ يُغادِرَ أَصَرَّ على رُؤْيَةِ الرَّفيقِ شَدّادٍ الصَّغيرِ وتَقْبيلِهِ.

في اليَومِ التّالي مِنْ لِقاءِ سباعي بِرِهام.. ولَمْ يَكَدْ يَصِلُ مَحْدَدَتَهُ لِيُباشِرَ عَمَلَهُ، وإِذا بِسَيّارَةٍ قَدْ تَوَقَّفَتْ أَمامَ المَحْدَدَةِ وتَرَجَّلَ مِنْها سائِقُها، ولَمْ يَكُنْ هذا الرَّجُلُ سِوى الرَّفيقِ نَديم زَوجِ الرَّفيقَةِ رِهام.. بادَرَهُ قائِلاً:

- أَهْلاً.. أَهْلاً.. يا رَفيقي العَزيز.. مَتى عُدْتَ مِنْ سَفَرِكَ.. وكيفَ كانَ المُؤْتَمَرُ.. و.. و.. ويُقاطِعُهُ الرَّفيق نَديم ضاحِكاً:

- على مَهْلِك يا رَفيق.. أَتُريدُ أَنْ تَعْرِفَ أَحْداثَ أُسْبوعٍ كامِلٍ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ.. وهكَذا على الواقِفِ؟!

وتَعانَقَ الرَّجُلانِ عِناقَ الإِخْوَةِ، وعِنْدَما قَدَّمَ لَهُ كُرْسِيًّا كانَتْ رِهام قَدْ انْضَمَّتْ إِلَيهِما تَحْضُنُ طِفْلَها.. قالَ نَديم:

- أَوَّلاً سويسرا مِنْ أَجْمَلِ بُلْدانِ العالَمِ بِبُحَيراتِها بَيْنَ جِبالِها الخَضْراءِ الشّامِخَةِ، وثانِيًا كانَ اللِّقاءُ مُثيراً، لكِنَّ الحَقائِقَ الَّتي طُرِحَتْ لِلنِّقاشِ كانَتْ موجِعَةً..

- مَثَلاً..

قالَها سباعي بِكَثيرٍ مِنْ حُبِّ الاسْتِطْلاعِ.

- العُنْفُ الَّذي يَزْدادُ يَوماً بَعْدَ يومٍ، ثُمَّ الفَقْرُ.. أَتَدْري كَمْ جائِعاً في هذا العالَمِ؟ هُنالِكَ مِلْيارْد جائِعٍ.. ومَتى؟ في نِهايَةِ قَرْنِنا هذا! القَرْنِ العِشرين!!

ويَسْأَلُ سباعي بِلَهْجَةِ مَنْ يُريدُ أَنْ يَطْمَئِنَّ على شَيءٍ أَثيرٍ عِنْدَهُ:

Scanned with CamScanner

- وماذا عَن جَماعَتِنا.. أَقْصِدُ الاتِّحادَ السّوفييتي وباقي دُوَلِ المُعَسكَرِ الاشْتِراكي؟

هَزَّ نَديم كَتِفَيهِ مُسْتاءً

- إنْ صَحَّ ما سَمِعْناهُ مِنْ بَعْضِ الرِّفاقِ مِنَ الدُّوَلِ الصَّديقَةِ، ومِنْهُم الرِّفاقُ العَرَبُ الَّذينَ يَعيشونَ في الدُّوَلِ الاشْتِراكِيَّةِ فَالأَمْرُ في غايَةِ الخُطورَةِ.

- خُطورَةٌ! هَلّا أَفْصَحْتَ؟!

- المَنْظومَةُ الاشْتِراكِيَّةُ بِرُمَّتِها يَنْتَظِرُها مُسْتَقْبَلٌ غامِضٌ، ومِنْها ما وَصَلَ الى حافَّةِ الإنْهيار..

- حَتَّى الاتِّحادُ السّوفييتي!؟

- قَدْ تَكونُ البِدايَةُ مِنْ هُناكَ.

بَدا على سباعي كَأَنَّهُ يُشاهِدُ فيلْماً مُرْعِباً، قالَ:

- وَهَلْ صَدَّقْتَ يا رَفيق؟ إنَّهُ كَذِبُ الحاقِدينَ لا أَكْثَر

- بَلْ إنَّهُ حَراكُ أَهْلِ تِلْكَ الدُّوَلِ! وأَكْثَرُ مِنْ ذلكَ، لَقَدْ أَصْبَحَتِ الأَحْزابُ الشُّيوعِيَّةُ الحاكِمَةُ الهَدَفَ الأَوَّلَ عِنْدَ الشُّعوبِ، والَّذي يَجِبُ إسْقاطُهُ! لَقَدْ تَحَوَّلَتْ دِكْتاتورِيَّةُ الطَّبَقَةِ العامِلَةِ الى دِكْتاتورِيَّةِ الحِزْبِ..

ويَقولُ سباعي مُحْتَدّاً:

- مُؤْسِفٌ جِدّاً يا صاحِبي أَنْ أَسْمَعَ مِثْلَ هذا الكَلام، ومِمَّنْ؟ مِنْكَ أَنْتَ يا رَفيق نَديم..

- هذا لَيسَ ما أَقولُهُ أَنا، بَلْ إنَّهُ ما يَقولونَ..

- وهَلْ حَدَّثْتَ العَمَّ صابِر بِهذِهِ التُّرّهاتِ؟

- أَعوذُ بِالله.. وإيّاكَ أَنْ تُحَدِّثَهُ أَنْتَ بِما سَمِعْتَ!

وهُنا تَتَدَخَّلُ رِهام في الحَديثِ بِلَهْجَةٍ تَحْمِلُ الأَمْرَ والرَّجاءَ مَعاً:

- بِالمَعَزَّةِ الَّتي بَيْنَنا يا أَخي سباعي إيّاكَ أَنْ يَعْرِفَ مِنْ هذا الحَديثِ كَلِمَةً، ومَنْ أَكْثَرُ مِنْكَ يَعْرِفُ أَنَّ صِحَّةَ والِدي لَمْ تَعُدْ تَحْتَمِلُ، خاصَّةً بَعْدَ الأَزْمَةِ القَلْبِيَّةِ الَّتي أَصابَتْهُ!

قالَتْ هذا ونَهَضَتْ لِتُنْهي هذا الحَديثَ الموجِعَ لِمَنْ يُؤْمِنُ أَنَّ الحَتْمِيَّةَ التّاريخِيَّةَ لا بُدَّ آتِيَةٌ لِتَمْسَحَ الفَوارِقَ الطَّبَقِيَّةَ، ولِيَسودَ النِّظامُ الاشْتِراكِيُّ! وقامَ نَديم وقَد مَدَّ راحَتَهُ مُوَدِّعاً:

- على كُلٍّ يا رَفيقي هذا ما سَمِعْتُهُ، لا ما أَتَمَنّاهُ!

رَكِبَ نديم سَيّارَتَهُ والى جانِبِهِ جَلَسَتْ زَوجَتُهُ الَّتي بَدا عَلَيها حُزْنُها على سباعي وَقَدْ تَرَكاهُ في حالَةٍ نَفْسِيَّةٍ تاعِسَةٍ، وأَوصاهُ أَنْ يَكْتُمَ الحَديثَ عنِ العَمِّ صابِر، وهو المُعْتادُ أَنْ يَظَلَّ على قَلَقٍ الى أَنْ يَسْأَلَهُ فَيَرْتاحَ.

ومِنْ حُسْنِ حَظِّ سباعي أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيهِ في خَلْوَتِهِ في المَحْدَدَةِ أَحَدٌ فَيَقْطَعْ عَلَيهِ تَفْكيرَهُ المُتَقَطِّعَ أَصْلاً.. تُرى أَيَكونُ ما سَمِعَهُ نَديم صَحيحاً؟ لا! لا! لا شَكَّ أَنَّ هذا كَلامُ المُثَقَّفينَ الَّذينَ اجْتَمَعَ بِهِم نَديم في المُؤْتَمَرِ في جِنيف: أَلَمْ يَقُلْ لينينُ العَظيمُ: إنَّ المُثَقَّفينَ هُمُ الأَقْدَرُ على الخِيانَةِ، لِأَنَّهُم الأَقْدَرُ على تَبْريرِها! هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكونَ نَديم مِنْ هَؤُلاءِ؟! لا.. لا.. مُسْتَحيل! فَمَنْ قَبِلَتْهُ رِهام شَريكَ حَياةٍ، وَمَنْ قَبِلَهُ العَمُّ صابِر صِهْراً لا يُمْكِنُ إلّا أَنْ

Scanned with CamScanner

يَكونَ ماركسيًّاً صُلْباً.. أقْفَلَ المَحْدَدَةَ وعادَ الى البَيتِ مُتَباطِئاً كَمَنْ يُريدُ أنْ يُطيلَ الطَّريقَ، عَلَّهُ يَصِلُ البَيتَ ويَنْدَمُ في فِراشِهِ بَعْدَ أنْ يَكونَ قَدْ أفْرَغَ رَأسَهُ مِنْ أفْكارٍ قَدْ تَطْرُدُ النَّومَ مِنْ عَينَيهِ أسْبوعاً.

وتَمُرُّ الأيّامُ تَتْرى بِحُلْوِها ومُرِّها والنّاسُ لاهونَ بِشُؤونِهم اليَوميَّةِ شَأنُهم شَأنُ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ البَشَرِ على مَرِّ العُصورِ، حَياةٌ كَهَذِهِ قَدْ تَدْفَعُ الإنْسانَ العادِيَّ الى الرَّوتينِ، فَتُصْبِحُ أيّامُهُ يوماً واحِداً طَويلاً مُمِلّاً.. لكِنَّ سباعي لا يَجِدُ الرَّوتينَ الى نَفْسِهِ دَرْباً، فَهو إما مَعَ والِدَيهِ يَعولُهُما خاصَّةً بَعْدَ زَواجِ أُخْتِهِ سُعاد الّذي تَمَّ بِاحْتِفالٍ مُتَواضِعٍ جَمَعَ العائِلَتينِ وبَعْضَ الأصْدِقاءِ.. أو تَراهُ في المَحْدَدَةِ يُصارِعُ الحَديدَ مِنْ أجْلِ لُقْمَةٍ يَأكُلُها بِعَرَقِ الجَبينِ؛ وما تَوَفَّرَ لَهُ مِنْ وَقْتٍ بَعْد ذلكَ فَلِلْعَمَلِ الحِزْبِيِ بِالتَّنْسيقِ مَعَ العَمِّ صابِر الّذي تَحالَفَ المَرَضُ والشَّيخوخَةُ عَلَيهِ وأقْعَداهُ في البَيتِ مِنْ غَيرِ أنْ يَفُتّا مِنْ روحِهِ المُتَمَرِّدَةِ كَنارٍ مَجوسِيَّةٍ لا تَنْطَفِئُ.

ويَتَذَكَّرُ سباعي حَديثَ نَديم مَعَهُ، ويَتَمَنّى لو يَسْتَطيعُ أنْ يَعْرِفَ رَأيَ العَمِّ صابِر في ما سَمِعَ، ولَكِنْ كَيفَ سَيَعْرِفُ ووَصِيَّةُ رِهام عِنْدَهُ خَطٌّ أحْمَرُ لا يُمْكِنُهُ تَجاوُزَهُ!.. عِنْدَما زارَهُ مَساءً بادَرَهُ بِصَوتٍ خافِتٍ:

- لا تَنْسَ يا سباعي المُشارَكَةَ في التّاسِعِ مِنْ أيّار.. يَبْدو أنّني لَنْ أسْتَطيعَ المُشارَكَةَ هذا العامَ..

يَزْفُرُ زَفْرَةً طَويلَةً ويُتابِعُ:

Scanned with CamScanner

- لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنِ المُشارَكَةِ في هذِهِ الذِّكرى الهامَّةِ.. أَتَدْري ما مَعْنى الانْتِصارِ على النّازِيَّةِ!؟ وعلى يَدِ الجَيشِ الأَحْمَرِ! جَيشِ العُمّالِ والفَلّاحينَ..

ويَنْظُرُ سباعي الى العَمِّ صابر، فَيَرى دُموعاً في عَينَيهِ..

- بَلْ سَتُشارِكُ يا مُعَلِّمي، ومَكانُكَ مَحْفوظٌ في طَليعَةِ المُشارِكينَ!

***

كانَ العَمُّ صابر قَدْ أوصى سباعي أَنْ يَضَعَ إِكْليلَ وَرْدٍ على النُّصْبِ التِّذْكاري المُقامِ في غابَةِ الجَيشِ الأَحْمَرِ، في جِبالِ القُدْسِ قُرْبَ أَبي غوش تَخْليداً لِذِكْرى جُنودِ الجَيشِ الأَحْمَرِ السُّوفييتيِّ الّذينَ سَقَطوا بِالآلافٍ دِفاعاً لَيسَ عَنِ الإِنْسانِ السُّوفييتيِّ فَقَطْ، بَلْ عَنِ البَشَرِيَّةِ جَمْعاءَ كي تَعيشَ بِكَرامَةٍ بِقَضائِها على الوَحْشِ النّازِيِّ.. وقَدْ أوصاهُ أيضاً أَنْ يَكْتُبَ على الإِكْليلِ" الى أَرْواحِ الشُّهَداءِ الّذينَ ماتوا كَي تَحْيا البَشَرِيَّةُ جَمْعاءَ، ماتوا ولكِنَّهُمْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ..." . وضَعَ سباعي الإِكْليلَ مُكْبِراً العَمَّ صابر على روحِهِ السّامِيَةِ الّتي تَثَقَّفَتْ بِقُدْسِيَّةِ جَميعِ الأَدْيانِ، أَلَيسَ اخْتِيارُهُ لِآيَةٍ قُرآنِيَّةٍ لا إِنْجيلِيَّةٍ لِمُلاءَمَتِها لِلْمَوقِفِ انْطِلاقَةُ روحٍ، وشَجاعَةُ قَلْبٍ؟ وجَلَسَ على مَقْعَدٍ هُناكَ عَلَّهُ يَرى رِهام وزَوجَها، وعِنْدَما لَمْ يَجِدْهُما أَيقَنَ أَنَّهُما لَنْ يَحْضُرا هذا

العامَ، وانْتَبَهَ فَجْأَةً الى الَّتي جَلَسَتْ بِجانِبِهِ، أَو هُوَ الّذي جَلَسَ بِجانِبِها لا يَدْري.. نَظَرَ إِلَيها، والْتَقَتْ عَيناهُما بِنَظْرَةٍ خاطِفَةٍ ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ طالَتْ وطالَتْ حَتّى استَحالَتْ بَسْمَتَيْنِ الْتَقَتا، فاعْتِذاراً مِنْهُ على أَنَّهُ جَلَسَ بِجانِبِها مِنْ غَيرِ أَنْ يَطْلُبَ إِذْناً، قالَتْ باللُّغَةِ العِبْرِيَّةِ:

- عَفْواً أَنا لا أَفْهَمُ العَرَبِيَّةَ..

اعْتَذَرَ سباعي مَرَّةً ثانِيَةً، وأَفْهَمَها بِالعِبْرِيَّةِ لِماذا اعْتَذَرَ حينَ جَلَسَ، قالَتْ:

- لا حاجَةَ لِلاعْتِذارِ، فَنَحْنُ في حَديقَةٍ عامَّةٍ.

- وَلَو.. لَعَلَّكِ تُفَضِّلينَ الجُلوسَ وَحيدَةً!

- لَيسَ تَماماً.. مَعَ أَنَّ الوِحْدَةَ عامِلٌ ضَروريٌّ لِلتَّأَمُّلِ

- حَقيقَةً أَمامَ هذا النُّصُبِ التِّذْكارِيِّ أَقَلُّ ما يَفْعَلُهُ الزّائِرُ وهو الجُلوسُ والتَّأَمُّلُ..

- لَقَدْ لَفَتَ انْتِباهي إِكْليلُ الوَرْدِ الّذي وضَعْتَهُ على النُّصْبِ والكِتابَةُ عَليهِ، ماذا كَتَبْتَ؟

شَرَحَ لَها سباعي ما كُتِبَ على الإِكْليلِ مُحاوِلاً قَدْرَ استِطاعَتِهِ، وبِلُغَتِهِ العِبْرِيَّةِ المُتَوَسِّطَةِ المُسْتَوى أَنْ يَكونَ قَريباً مِنَ التَّرْجَمَةِ الصَّحيحَةِ، ثُمَّ تابَعَ:

- بِالحَقيقَةِ فَعَلْتُ هذا بِالنِّيابَةِ عَنِ العَمِّ صابِر

- هو عَمُّكَ؟

- لا.. هو بِمَقامِ عَمّي.. لا بَلْ والِدي .. ما تَخَلَّفَ عَنِ

Scanned with CamScanner

الحُضورِ الى هُنا يَوماً

- وهَلْ تُوْفِّيَ؟

- لا.. ولَكِنَّ المَرَضَ والعَجَزَ قَدْ أقْعَداهُ.

- عَفْواً إنْ أثْقَلْتُكَ بِأسْئِلَتي الكَثيرةِ فَأنا لا أعْرِفُ الكَثيرَ عَنِ العَرَبِ. أعْرِفُ أنَّكُمْ لا تُحِبّونَ اليَهودَ، وتُحِبّونَ النِّساءَ، ولِذا فَأنْتُمْ تَتَزَوَّجونَ في سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ، وأكْثَرَ مِنْ واحِدَةٍ... أمّا أنْتَ فَقَدْ لَمَسْتُ فيكَ إنْساناً مُتَفَهِّماً.. وأكْثَرُ ما لَفَتَ انْتِباهي أنَّكَ لَمْ تَقَعْ تَحْتَ طائِلَةِ النّازِيَّةِ مِثْلي، وتَأْتي لِتَحْتَفِلَ بِالنَّصْرِ على النّازِيَّةِ..

ضَحِكَ سباعي ضِحْكَةَ مَنْ سَمِعَ نُكْتَةً، قالَ:

- أوَّلاً ما سَمِعْتِهِ عَنِ العَرَبِ كَذِبٌ وافْتِراءٌ، وسَتَعْرِفينَ ذلِكَ حينَ تَتَعامَلينَ مَعَهُمْ، وثانِياً أنا لَسْتُ العَرَبِيَّ الوَحيدَ هُنا، فَنِصْفُ هذِهِ الجُموعِ مِنَ العَرَبِ، وأعْجَبُ أنَّكِ للآنَ لَمْ تُفَكِّري بِمَعْرِفَةِ العَرَبِ مَعْرِفَةً صَحيحَةً وهُمْ حَولَكِ كُلَّ عامٍ في هذِهِ الغابَةِ المُبارَكَةِ وكُلُّهُمْ مُنْتَمونَ الى الحِزْبِ الشُّيوعي.. لا تَنْسَي يا سَيِّدَتي أنَّ انْتِماءَنا الى الحِزْبِ الشُّيوعيِّ الإسْرائيليِّ والَّذي هُوَ الحِزْبُ العَرَبِيُّ اليَهودِيُّ الوَحيدُ في هَذِهِ البِلادِ أُمَمِيّونَ، وفَرْحَتُنا بِانْتِصارِ الجَيْشِ الأحْمَرِ لا تَقِلُّ عَنْ فَرْحَتِكُمْ.. واسْمَحي لي أنْ أسْألَكِ:ماذا تَعْرِفينَ عَنِ الحِزْبِ الشُّيوعي؟

- أعْرِفُ أنَّهُ ضِدُّ الدَّوْلَةِ

- عَفْواً على سُؤالٍ شَخْصِيّ: أينَ تَعيشينَ؟

- في الكيبوتس

- مُؤْسِفٌ حَقّاً أنْ يُعَرِّفَ حِزْبُنا بِهذا التَّعْريفِ المُجْحِفِ. نَحْنُ يا سَيِّدَتي -عَرَباً ويَهود- ضِدَّ الصُّهْيونِيَّةِ الَّتي أقامَتْ دَوْلَتَها على أنْقاضِ ما هَدَّمَتْهُ مِنْ قُرىً عَرَبِيَّةٍ كانَتْ عامِرَةً بِسُكّانِها الفِلَسْطينِيّينَ في الوَقْتِ قَبْلَ قِيامِ إسْرائيل عاشَ اليَهودُ أقَلِّيَّةً مَعَ العَرَبِ بِكُلِّ وُدٍّ واحْتِرامٍ.. ولَيتَكِ تُتابِعينَ ما يَقولُهُ أعْضاءُ حِزْبِنا مِنْ عَلى مِنَصَّةِ الكِنيست.

قالَ سباعي ما قالَهُ وهي صامِتَةٌ، وكَمْ تَمَنّى أنْ يَكونَ قَدْ عَلِقَ في ذِهْنِها شَيئاً مِمّا قالَهُ يُشَكِّلُ عِنْدَها مادَّةً جَديرَةً باهْتِمامِها ومِنْ ثَمَّ تَفْكيرِها، خَرَجَتْ مِنْ صَمْتِها قائِلَةً:

- جَدّايَ مِنْ ضَحايا النّازِيَّةِ، وجاءَ والِدي مِنْ رومانيا الى هذِهِ البِلادِ شابّاً، وعاشَ في الكيبوتس يَتيمَ الأبِ والأُمِّ، تَعَرَّفَ على والِدَتي وتَزَوَّجا، وأنْجَبانا أنا وأخي وعَوَّدانا عَلى أنْ نَأتيَ مَعَهُما الى هُنا كُلَّ عامٍ، وبَعْدَ أنْ تُوُفِّيا هاجَرَ أخي الى الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ، وبَقيتُ أنا في الكيبوتس.

- عَفْواً على سُؤالي، تَعيشينَ وَحيدَةً بِلا أُسْرَةٍ، وبِلا أولادٍ !

بِلا حَرَجٍ أجابَتْ ضاحِكَةً:

- لَقَدْ عِشْتُ تَجْرِبَةَ زَواجٍ فاشِلٍ..

- آسِفٌ إذا كانَ سُؤالي قَدْ ذَكَّرَكِ بِما لا يَسُرُّكِ.

- بَلْ عاديٌّ جِدّاً، وأنْتَ!؟ هَلْ أنْتَ مُتَزَوِّجٌ؟

- لا..

Scanned with CamScanner

ضَحِكَتْ عَنْ أسْنانٍ بَيضاءَ مُنْتَظِمَةٍ في ثَغْرٍ بَهِيٍّ بِشَفَتَيْنِ ناضِجَتَيْنِ، قالَتْ:

- كَيْفَ وأنتَ في مِثْلِ هذهِ السِّنِّ! ، أظُنُّ أنَّكَ قَدْ تَجاوَزْتَ الثَّلاثينَ.

- لِكُلِّ قاعِدَةٍ شَواذٌّ!

نَظَرَتْ الى سباعي نَظْرَةً لَمْ يَفْهَمْ مَعْناها.. أهِيَ نَظْرَةُ إعْجابٍ أمْ أنَّها نَظْرَةُ إشْفاقٍ مَشوبٍ بِعَدَمِ الرِّضى.. اعْتَدَلَتْ وقامَتْ، تارِكَةً سباعي في حَيْرَةٍ مِنْ أمْرِهِ، لَكِنَّ نَظَراتِهِ ظَلَّتْ تُلاحِقُها، وقَبْلَ أنْ تَغيبَ عَنْ ناظِرَيْهِ، صاحَ:

- ما اسْمُكِ يا فاتِنَة ؟

ولِمُفاجَأتِهِ الْتَفَتَتْ إلَيهِ الْتِفاتَةً حَرَّكَتْ بِداخِلِهِ شَباباً غافِياً، ثُمَّ تَبَسَّمَتْ ابْتِسامَةً أشْعَلَتْ في قَلْبِهِ هَشيماً راكَمَهُ جَفافُ السِّنينَ، قالَتْ بِدَلَعٍ مُحَبَّبٍ:

- اسْمي نَتالي... وأنتَ؟

- اسْمي شَدّاد.

اسْتَدارَتْ وتابَعَتْ سَيرَها رافِعَةً يَدَها مُلَوِّحَةً...لَقَدْ غابَتْ نَتالي عَنْ ناظِرَيهِ دونَ أنْ تَغيبَ عَنْ وِجْدانِهِ؛ يا لَلْعَلِيِّ القَديرِ! كَيفَ انْصَبَّ كُلُّ هذا الجَمالِ في امْرَأةٍ واحِدَةٍ، ولَو تَفَرَّقَ لَكَفى كَتيبَةً مِنَ النِّساءِ! تَقاسيمُ الوَجْهِ، العَينانِ الخَضْراوانِ، الشَّعْرُ الكَسْتَنائِيُّ المُسْدَلُ على العُنُقِ العاجِيِّ، القَدُّ الَّذي لا هُوَ بِالنَّحيلِ، ولا هُوَ بِالسَّمينِ، والمُنْحازُ الى الطّولِ بِتَناسُقٍ أجْسامِ

عارِضاتِ الأزْياءِ.. يا أللهُ ما هَذِهِ الخَلْطَةُ الرَّبّانِيَّةُ مِنَ الجَمالِ الَّتي أخَذَتْهُ بَعيداً بَعيداً الى الوَراءِ، وذَكَّرَتْهُ بِأنَّهُ شابٌّ ولِقَلْبِهِ حَقٌّ عَلَيهِ، ويَسْألُ نَفْسَهُ

- تُرى هَلْ عَلِقَ في ذِهْنِها بَعْضُ ما عَلِقَ في ذِهْنِهِ هُوَ مِنْ حُضورِها!؟ لَيْتَهُ يَدْري لِيَكونَ مِنَ السُّعَداءِ في هذهِ الدُّنيا!

أطْرَقَ سباعي يَجْتَرُّ أفْكارَهُ على مَهَلٍ.. لَعَلَّ هذا ما يُسَمّونَهُ الحُبَّ مِنَ النَّظْرَةِ الأُولى، رُبَّما.. فَإحْساسُهُ هذا دَخيلٌ عَليهِ، صَحيحٌ أنَّهُ يُكِنُّ لَرِهام حُبّاً قَدْ نُسَمّيهِ مُحَرَّماً، ولَكِنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنْ هذا الشُّعورِ الَّذي يُحِسُّهُ تِجاهَ هذهِ الحورِيَّةِ الَّتي كَبَّلَتْهُ بِسِحْرِها، مَظْهَراً ومَخْبَراً، وهو لا يَدْري عَنْها شَيئاً غَيرَ ما أرادَتْ هِيَ أنْ يَعْرِفَهُ عَنْها.. رَفَعَ رَأْسَهُ لِيَرى الواقِفَ أمامَهُ، وإذا هي تَمُدُّ يَدَها مَعَ ابْتِسامَةٍ أضاءَتْ زَوايا مُعْتِمَةً في نَفْسِهِ، قالَتْ:

- رَجَعْتُ لِأُعْرِضَ عَلَيكَ صَداقَتي.. لِنَكُنْ أصْدِقاء ....!

حينَ جَلَسَتْ بِجانِبِهِ ثانِيَةً كانَ هُوَ قَدْ دَخَلَ في حالَةٍ هي أقْرَبُ الى اللّاوَعْيِ.. سباعي الَّذي لَمْ يَتَبَكَّمِ الكَلامُ عَلَيهِ يوماً يَجِدُ نَفْسَهُ يَبْحَثُ عَنِ الكَلامِ فلا يَجِدُهُ، وبِغَريزَةِ الأُنثى الحُرَّةِ المُجَرِّبَةِ حَدَسَتْ ما يَدورُ في رَأْسِهِ، قالَتْ:

- لَعَلَّكَ تَتَساءَلُ لِماذا عُدْتُ إلَيكَ، وماذا أُريدُ مِنْكَ.. هذا حَقٌّ لَكَ.. أعْجَبَني فيكَ وفاؤُكَ لِصَديقِكَ، وهذا نادِرٌ في أيّامِنا، وعَرَفْتُ مِنْ مُحادَثَتِنا القَصيرَةِ مَنْ أنتَ، وماذا تَعْني لَكَ كَلِمَةُ

Scanned with CamScanner

إنسانٍ. فَقَطرَةُ ماءٍ واحِدَةٌ تَدُلُّ على ما في ماءِ المُحيطِ مِنْ أَملاحٍ..
ثُمَّ رَأَيتُ فيكَ شاباً مَتينَ الجِسْمِ وَسيماً، فَجِئتُ أَعْرِضُ عَلَيكَ صَداقَتي.. قُلتُ في نَفسي: ولِمَ لا؟ أَليسَ مِنْ حَقّي أَنْ أَختارَ شاباً وسيماً بَعْدَ تَجرِبَةِ زَواجٍ فاشِلَةٍ!؟فالصَّداقَةُ عِندي يا سَيِّدُ شَدّاد أَصْبَحَتْ ضَرورَةً اجتِماعِيَّةً، وَأَنا أَعيشُ اليَومَ وَحيدَةً بِلا صَديقٍ!
أَتَدْري ما مَعْنى أَنْ تَعيشَ بِلا صَديقٍ؟!
تَوَقَّفَتْ عَنِ الكَلامِ لَحْظَةً. نَظَرَتْ اليهِ مُبْتَسِمَةً. وتابَعَتْ:

- ما لَكَ صامِتٌ لا تَتَكَلَّمُ؟! هَلْ أَكَلَتِ القِطَّةُ لِسانَكَ؟!

- ولكنْ أنا.... وأنْتِ....!

- أَنْتَ ماذا؟ وأنا ماذا؟ أَنْتَ عَرَبِيٌّ وأنا يَهودِيَّةٌ..ما الخَطَأُ في أَنْ نَكونَ صَديقَينِ؟! أَلَمْ يُغْضِبْكَ ما قُلْتُهُ عَنِ العَرَبِ؟ !أَلا تُريدُني أَنْ أَتَعَرَّفَ على العَرَبِ أَكْثَرَ؟! ثُمَّ أَلا يَكْفيكَ أَنَّ هذِهِ الغابَةَ المُبارَكَةَ قَدْ جَمَعَتْنا؟!
ضَحِكَ سباعي ضِحْكَةً خفيفَةً، قالَ مُعْجَباً بِجُرْأَتِها:

- حَقيقَةً لا أَدْري ما أَقولُ.. أَمامَ جَمالِكِ الصّارِخِ هذا، وإزاءَ مُبادَرَتِكِ الجَريئَةِ هذه، ونَقاءِ سَريرَتِكِ، أُحِسُّ أَنَّني طِفْلٌ يَقِفُ أَمامَ مُعَلِّمَتِهِ في رَوضَةِ أَطْفالٍ، فَاسمَحي لي يا مُعَلِّمَتي أَنْ أَظَلَّ في صَمْتي، وفي أَدَبي.. وأَنْ أُقَبِّلَ يَدَكِ.. ناوَلَتْهُ يَدَها.. قَبَّلَها، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وغَرِقَ في بَحْرَينِ أَخْضَرَينِ ولَمْ يَعُدْ يَهْتَمُّ إنْ ماتَ غَرَقاً فيهِما...

عادَ سباعي الى القَرْيَةِ بَعْدَ يَومٍ زاخِرٍ بِأَحْداثٍ قَدْ تَكونُ مِفْصَلِيَّةً في حَياتِهِ، خاصَّةً هذِهِ الجِنِّيَّةَ الّتي ظَهَرَتْ لَهُ كَما تَظْهَرُ الشَّمْسُ لِقْرورٍ في يَومٍ غائِمٍ بارِدٍ، وأَوَّلُ شَيءٍ فَعَلَهُ هو زِيارَةُ العَمِّ صابِر، فَوَجَدَهُ في سَريرِهِ والعَمَّةُ أُمُّ رَشيدٍ تُساعِدُهُ في تَناوُلِ عَشائِهِ.. تَوَقَّفَ عَنْ تَناوُلِ الطَّعامِ وقالَ بِلَهْفَةِ مَنْ يَنْتَظِرُ بُشرى سارَّةً:

- ماذا وَراءَكَ؟ حَدِّثْ وبِالتَّفْصيلِ المُمِلِّ!

وحَدَّثَهُ سباعي بِتَفْصيلٍ مُمِلٍّ فِعْلاً، كانَ يَسْأَلُ عَنْ رِفاقِهِ القُدامى، مَنْ حَضَرَ مِنْهُمْ ومَنْ تَعَذَّرَ عَلَيهِ الحُضورُ، وأَكْثَرُ ما أَثْلَجَ صَدْرَهُ حينَ أَخْبَرَهُ سباعي أَنَّ حُضورَ عُنْصُرِ الشَّبابِ كانَ طاغِياً.. وبَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ على نَجاحِ اللِّقاءِ في غابَةِ الجَيْشِ الأَحْمَرِ، وأَنَّ الإِكْليلَ قَدْ وُضِعَ على النُّصْبِ تَنَهَّدَ بِارْتِياحٍ بَدا أَثَرُهُ على سَمْتِهِ المُتْعَبِ.. جَلَسَ سباعي قَليلاً ثُمَّ اعْتَذَرَ، وصَلَ البَيتَ وكانَ والِداهُ يَتَأَهَّبانِ لِلنَّومِ، حَيّاهُما ودَخَلَ غُرْفَتَهُ واسْتَلْقى على فِراشِهِ.. أَغْمَضَ عَينَيهِ يُحاوِلُ الإِغْفاءَ ولكِنْ عَبَثاً.. كَيفَ يَغْفو وصورَةُ نَتالي لا تُفارِقُ خَيالَهُ؟! وراحَ يَتَقَلَّبُ في فِراشِهِ يَميناً وشِمالاً.. حيناً يَجِدُ نَفْسَهُ قَدِ اسْتَسْلَمَتْ لِخَيالٍ جامِحٍ لَذيذٍ، وحيناً آخَرَ تَسْتَسْلِمُ لِتَقْريعٍ عَنيفٍ. ولَيتَهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يُخْبِرَ العَمَّ صابِرًا بِما يُحِسُّ تِجاهَ نَتالي لَكانَ أَشارَ عَلَيهِ بِما يُريحُهُ!

Scanned with CamScanner

في صَباحِ اليَومِ التّالي اسْتَيقَظَ وأَثَرُ القَلَقِ الَّذي انْتابَهُ كانَ بادِياً عَلَيهِ. وخَجِلَ مِنْ نَفسِهِ عِندَما أَدرَكَ كَمْ كانَ مُرْبَكاً وضَعيفاً لَيلَةَ أَمسِ.. وللَحظَةٍ قَرَّرَ أَنْ يَعتَبِرَ لِقاءَهُ بِنَتالي أَمراً عادِيّاً، خاصَّةً وأَنَّها الفَتاةُ الأُوروبِّيَّةُ الحُرَّةُ بِما تَقولُ وبِما تَفعَلُ. وقَدْ يَكونُ ما قالَتْهُ عَنِ الصَّداقَةِ أَمراً عادِيّاً قَصَدَتْ بِهِ مَعْنىً غَيرَ الَّذي قَدْ فَهِمَهُ هُوَ. فَلْيَتْرُكِ الأَيامَ إِذاً، تَفعَلُ فِعلَها ..

وقَبلَ أَنْ يَذهَبَ الى مَخدَعِهِ صَبَّحَ على والِدَيهِ وحكى لَهُما بِاقتِضابٍ عَنْ أَمسِهِ وما كانَ في غابَةِ الجَيشِ الأَحمَرِ. مَعَ أَنَّهُ يَعلَمُ أَنَّهُما لا يَهتَمّانِ لِسَماعِ مِثلِ هذهِ الأُمورِ الَّتي تَخُصُّهُ وَحْدَهُ، ولكِنَّهُ يَقومُ بِها مِنْ بابِ الاحتِرامِ لَهُما..ثُمَّ مَرَّ على العَمِّ صابِر لِيَطْمَئِنَّ عَلى صِحَّتِهِ. وعِندَما خَرَجَ تَبِعَتْهُ العَمَّةُ أُمُّ رَشيد وقالَتْ كَمَنْ تُريدُ أَلّا يَسْمَعَها أَحَدٌ:

- سَيَحْضُرُ رَشيد غَداً.. فَقَدْ أَخْبَرْناهُ عَنْ وَضْعِ عَمِّكَ صابِر الصِّحِّيِّ فَقَرَّرَ أَنْ يَجيءَ مَعَ زَوجَتِهِ وابْنَتِهِ لِيَرى والِدَهُ.. مَنْ يَدْري؟ فَقَدْ تَكونُ الزِّيارَةَ الأَخيرَةَ الَّتي يَرى فيها والِدَهُ. مَسَحَتْ دَمْعَةً سالَتْ على خَدِّها وتابَعَتْ:

- عَمُّكَ صابِر مُتْعَبٌ جِدّاً. وقَلْبُهُ الضَّعيفُ لا يُسْعِفُهُ على القِيامِ بِأَبْسَطِ الأَعْمالِ. وهو لا يَدْري عَنْ مَجيءِ رَشيدٍ. أَخْفَينا عَلَيهِ أَمْرَ الزِّيارَةِ كَي تَبدو عادِيَّةً. وكَيلا تَذْهَبَ بِهِ الظُّنونُ بَعيداً.

ووَصَلَ رَشيد مَعَ زَوجَتِهِ وابنَتِهِ.. وكَمْ كانَ اللِّقاءُ ساخِناً تَخَلَّلَهُ البُكاءُ حيناً وحيناً آخَرَ كانَتْ تَعْلو زَغاريدُ العَمَّةِ أُمِّ رَشيد.. وقَليلاً قَليلاً بَدَأَتِ القَعْدَةُ تَأْخُذُ شَكْلَها الطَّبيعِيَّ. قالَ العَمُّ صابِر:

- كَيفَ أَنْتَ في غُرْبَتِكَ يا وَلَدي؟

- بِدُعائِكَ أَنْتَ وأُمّي رِضىً والحَمْدُ لِلهِ.. وأَنْتَ؟

- كَما تَرى فَلا يَزالُ في العُمْرِ بَقِيَّةٌ حَتّى أَراكَ رَبُّ أُسْرَةٍ.

- لا تَقُلْ هذا يا أَبي أَرْجوكَ. العُمْرَ الطَّويلَ إِنْ شاءَ اللهُ حَتّى تُزَوِّجَ حَفيدَكَ!

- حَفيدي؟! أَينَ؟

- في رَحِمِ كَنَّتِكَ.. فَنَحْنُ نَنْتَظِرُ مَولوداً ذَكَراً وسَنُسَمّيهِ على اسْمِكَ..

نَظَرَ الحاضِرونَ الى حَيثُ أَشارَ فَأَطْرَقَتِ الزَّوجَةُ خَجَلاً. وقالَتْ بِعَرَبِيَّةٍ مُهَدَّمَةٍ:

- سَلامَتَكَ يا عم صابر!

وحينَ حاوَلَتِ العَمَّةُ أُمُّ رشيد أَنْ تَحْضُنَ عَبْلَةَ الصَّغيرَةَ عانَدَتْ الى أَنْ أَخَذَتِ الشَّرْحَ والتَّشْجيعَ المُلائِمَيْنِ مِنْ والِدَيها؛ فَأَقْبَلَتْ نَحْوَ جَدَّتِها وارْتَمَتْ في حِضْنِها. ولَمْ تَغْرُبْ شَمْسُ ذلكَ النَّهارِ حَتّى اكْتَمَلَ الجَمْعُ بِحُضورِ رِهام وزَوجِها والشَّدّادَيْنِ الكَبيرِ والصَّغيرِ...

***

Scanned with CamScanner

ما أسرَعَ الأيّامَ العَشَرَةَ الّتي قَضاها رَشيد مَعَ أَهْلِهِ.. لَمْ يَبْقَ أَحدٌ في القَرْيَةِ لَمْ يَأْتِ لِيُسَلِّمَ عَلَيهِ، وكانَ كُلَّما سَنَحَتْ لَهُ ساعَةٌ خَرَجَ بِرِفْقَةِ زَوجَتِهِ وابْنَتِهِ يجوبونَ طُرَقاتِ القَرْيَةِ، ورَشيد لَمْ يَتْرُكْ حَدَثاً أو حِكايَةً عاشَها في طُفولَتِهِ وصِباهُ إلّا وحَدَّثَهُمْ عَنْها بِحَماسٍ وكَأَنَّها حَدَثَتِ البارِحَةَ.. وأَجْمَلُ مِنْ هذا تَجْوالُهمْ بَيْنَ البَساتينِ، وحينَ وصَلوا الى بُسْتانٍ مُسَيَّجٍ واسِعٍ فيهِ الشَّجَرُ مِنْ كُلِّ نَوعٍ، فيهِ العِنَبُ والتّينُ والرُّمانُ بِأَنْواعِهِ المُخْتَلِفَةِ، راحَ يَذْكُرُها لِزَوجَتِهِ، وحينَ ذَكَرَ" بوز البَغل" وهو النَّوعُ المُمَيَّزُ بِحَجْمِهِ الكَبيرِ ضَحِكَتْ، وشارَكَها هُوَ في الضَّحِكِ مُوَضِحاً:

- كَذا هي حياةُ الفَلّاحينَ .. بَسيطَةٌ ومِنْ غَيرِ تَعْقيدٍ، فَأَسْماؤُهُمْ وأَسْماءُ الأَشْياءِ، وحَتّى أَمْثالُهُمْ مَأْخوذَةٌ مِنْ طَبيعَةِ حَياتِهِمْ: صَمَتَ قَليلاً ثُمَّ تابَعَ:

- أَتَذْكُرينَ؟ هذا البُسْتانُ الجَميلُ كانَ لَنا في يَومٍ مِنَ الأَيّامِ..

يَزْفُرُ زَفْرَةً حارَّةً ويُتابِعُ:

- كَمْ لَعِبْنا وكَمْ تَشاقَينا أنا وأُخْتي رِهام وأَصْدِقاؤُنا.. آهٍ....أَيّام!

- تَقولُ كانَ لَنا..

- بَاعَهُ والِدي كَي نَعيشَ بَعْدَ أَنْ سَدُّوا أَمامَهُ سُبُلَ الحَياةِ!

لَمْ يَسْتَرْسِلْ رشيد في الحَديثِ عَنْ مُعاناةِ والِدِهِ، ومِنْ ثَمَّ مُعاناتِهِمْ هُمْ لِمَواقِفِهِ السِّياسِيَّةِ. فَجوليا زَوجَتُهُ تَعْرِفُ كُلَّ شَيءٍ عَنْ مَواقِفِ العَمِّ صابر، وكَمْ تَسْتَنْكِرُ سِياسَةً كَهذهِ في دَوْلَةٍ

تَدَّعي الدّيمُقْراطِيَّةَ، وقَبْلَ أَنْ يُتابِعوا جَولَتَهُمْ ناداهُ العَمُّ سَلْمانُ، مالِكُ البُسْتانِ الحالِيُّ مُعاتِبًا:

- هَلْ نَسيتَ عَمَّكَ سَلْمان يا رَشيد؟ لَقَدْ فَهِمْتُ ما قُلْتَهُ لِزَوجَتِكَ، ما قُلْتَهُ بِالعَرَبِيَّةِ طَبْعاً، أَمّا ما رَطَنْتَ بِهِ لَمْ أَفْهَمْهُ..أَرجوكَ أَنْ تُتَرْجِمَ لِزَوجَتِكَ ما سَأَقولُهُ لَكَ.. اعْتَبِرْ أَنَّ هذا البُسْتانَ ما زالَ لَكُمْ، واقْطِفْ مِنْهُ ما تَشاءُ ساعَةَ تَشاءُ.....

شَكَرَ رَشيد العَمَّ سَلْمان على نَخْوَتِهِ الصّادِقَةِ، وكَذلكَ زَوجَتُهُ، وتابَعوا جَولَتَهُمْ بَعْدَ أَنْ أَصَرَّ العَمُّ سَلْمان على أَنْ يَقْطِفوا ما شاؤُوا مِنَ الثِّمارِ ويَحْمِلوهُ مَعَهُمْ الى العَمِّ صابر مَعَ الكَثيرِ مِنَ السَّلاماتِ والدُّعاءِ لَهُ بِالشِّفاءِ..

وقَبْلَ أَنْ يَعودوا الى البَيتِ أَرَى رَشيد ابنَتَهُ بَهاءَ الغُروبِ في قَرْيَةِ الآباءِ والأَجْدادِ.

Scanned with CamScanner

رُزِمَتِ الحَقائِبُ، وحَلَّتْ ساعَةُ الوَداعِ، وسالَتِ الدُّموعُ كَما سالَتْ ساعَةَ اللِّقاءِ، وشَتّانَ ما بَينَ دُموعِ اللِّقاءِ ودُموعِ الوَداعِ، الكُلُّ صامِتٌ يُعَبِّرُ عَنِ انْفِعالاتِهِ بِطَرِيقَتِهِ، ويَكْسِرُ العَمُّ صابر الصَّمْتَ، قالَ:

- هَلْ سَأَراكَ ثانِيَةً؟!

- مُؤَكَّدٌ يا أبي

- لا أَظُنُّ يا وَلَدي.. العُمْرُ يَتَقَدَّمُ والصِّحَّةُ تَتَأَخَرُ..

- لا.. لا.. لا أُريدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ هذا الكَلامَ.. أَنْتَ الَّذي عَلَّمْتَنا التَّفاؤُلَ والإقْبالَ على الحَياةِ..

- لَنْ أَرى الحَفيدَ المَوعودَ يا رَشيد!

- بَلْ سَتَراهُ وتُلاعِبُهُ؛ ثُمَّ مَنْ غَيرُكَ سَيُحَدِّثُهُ عَنْ ماركس وعَن لينين!

- حَدِّثْهُ عَنّي يا وَلَدي.. قُلْ لَهُ: افْتَخِرْ بِجَدِّكَ.. قُلْ لَهُ: كانَ جَدُّكَ إنْساناً بَسيطاً يُحِبُّ النّاسَ، والنّاسُ يُبادِلونَهُ حُبّاً بِحُبّ؛ قُلْ لَهُ: حَتّى لَو أَصْبَحْتَ مِنْ أَصْحابِ المَلايينِ لا تَنْسَ أَنَّ جَدَّكَ عاشَ فَقيراً، ولا تَنْسَ أَنَّ هُناكَ مِئاتِ مَلايينِ الفُقَراءِ جَوعى يَنامونَ بِلا عَشاءٍ في هذا العالَمِ! حَفِظْهُ ما قالَ الشّاعِرُ السّوري المُتَمَرِّدُ محمد الماغوط: ما أَسْهَلَ الحَياةَ لولا الكَرامَةُ.. سامِع ! ما أَسْهَلَ الحَياةَ لولا الكَرامَةُ... وفَوقَ كُلِّ ذا إيّاكَ أَنْ يَنْسى أَنَّ لَهُ وطَنٌ يُدْعى فِلَسْطين..

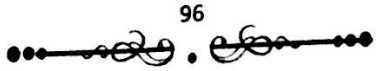

***

بَعْدَ سَفَرِ رَشيد بَدَأَتِ الحَياةُ في بَيتِ العَمِّ صابر تَعودُ الى ما كانَتْ عَلَيهِ، فَالعَمُّ صابر في صِراعٍ مَعَ قَلْبِهِ الضَّعيفِ.. والعَمَّةُ أُمُّ رَشيد تَرْعاهُ بِما أُوتِيَتْ مِنْ رِفْقٍ ومِنْ صَبْرٍ.. ورِهام عادَتْ الى شُؤونِها الَّتي تَزايَدَتْ بِانْتِقالِها الى بَيتِها الجَديدِ في حَيفا، حَيثُ نَقَلَ نَديم مَكْتَبَهُ الجَديدَ الى هُناكَ.. أَمّا سباعي فَلا يَتَأَخَّرُ عَنْ مَوعِدِ زِيارَةِ العَمِّ صابر يومِيّاً.

كانَ العَمُّ صابِر، زَعْمَ الرِّعايَةِ الفائِقَةِ، والأَدْوِيَةِ والمُنَشِّطاتِ، كَالشَّمْعَةِ يَذوبُ لَحْظَةً بِلَحْظَةٍ.. الى أَنْ تُوُفِّيَ تارِكاً وراءَهُ سيرَةً مُشَرِّفَةً، وقَدْ نَعاهُ سباعي في جَريدَةِ الاتِّحاد الحَيفاويَّةِ النّاطِقَةِ بِلِسانِ الحِزْبِ تَحْتَ عُنْوان" رَجُلٌ أَتْعَبَتْهُ كَرامَتُهُ في حَياتِهِ وكَرَّمَتْهُ في مَماتِهِ" .. وحَضَرَ الجَنازَةَ خَلْقٌ كَثيرٌ، مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ والقُرى المُجاوِرَةِ في طَليعَتِهِمْ قادَةُ الحِزْبِ الشُّيوعِيِّ، عَرَباً ويَهودَ، ورِجالُ دينٍ مِنْ جَميعِ الطَّوائِفِ، خاصَّةً مِنَ الطّائِفَةِ المَعْروفِيَّةِ لِعَلاقاتِهِ الاجْتِماعِيَّةِ الحَميمَةِ بِهِمْ .. بَكاهُ الأَصْدِقاءُ بِصَمْتٍ، وبَكَتْهُ النِّسْوَةُ وَلْوَلَةً.. وبَكَتْ رِهامُ على كَتِفِ سباعي عَلَّها تَجِدُ في ذلِكَ العَزاءَ والأَمانَ..وصَلّى الكَهَنَةُ العَمَّ صابِرًا وأَطالوا الصَّلاةَ والمُشَيِّعونَ واقِفونَ، لا يَتَذَمَّرونَ ولا يَتَأَفَّفونَ .. وقَبْلَ أَنْ يُرفَعَ التّابوتُ المَلْفوفُ بِالعَلَمِ الأَحْمَرِ، قالَتِ العَمَّةُ أُمُّ رَشيد: وَصِيَّةُ صابِر أَنْ تَمُرَّ الجَنازَةُ أَمامَ نادي الحِزْبِ، وأَنْ يَقِفَ مَنْ شاءَ مِنَ المُشَيِّعينَ دَقيقَةَ صَمْتٍ.

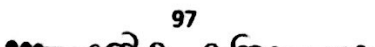

Scanned with CamScanner

بَعْدَ أَيّامٍ قَليلَةٍ تَلْفَنَتْ رِهام تُعْلِمُ أخاها رَشيد بِوفاةِ الوالِدِ، وكَمْ كانَتْ جَنازَتُهُ كَبيرَةً ومُشَرِّفَةً.

***

اتَّفَقَتْ رِهام مَعَ زَوجِها نَديم على أَلّا تُفارِقَ أُمَّها إلّا بَعْدَ جنّازِ الأَرْبَعينَ إلّا لِضَرورَةٍ ما، بَعْدَها تَتْرُكُ العَمَّةُ دارَها لِتَعيشَ مَعَهما في حَيفا؛ وسباعي لَمْ يَنْقَطِعْ عَنْ زِيارَةِ بَيتِ مُعَلِّمِهِ الّذي أَحَبَّهُ وعاهَدَ نَفسَهُ على أَنْ يَظَلَّ وفِيّاً لِذِكْراهُ في مَماتِهِ كَما كانَ وفِيّاً لَهُ في حَياتِهِ، لكِنْ بِحُكْمِ الظُّروفِ الجَديدَةِ قَلَّلَ مِنْ زِياراتِهِ تِلْكَ وحينَ عاتَبَتْهُ العَمَّةُ أُمُّ رَشيد، قالَ: أَنتِ والِدَةٌ ورِهام أُختٌ لي ولكنْ...

وبِاقْتِرابِ جنّازِ الأَرْبعينَ خَشِيَتْ رِهام أَنْ لا تَتَوَفَّرَ لَها فُرْصَةٌ لِتَخْلو بِسباعي، الى أَنْ جاءَ ذاتَ مَساءٍ، وكانَتْ رِهام لِوَحْدِها وشَدّاد الصَّغيرُ نائِمَاً، قالَتْ وبِلا مُقَدِّماتٍ: أنا أُحِبُّ زَوجي وَأَحْتَرِمُهُ جِدّاً.. ولكِنّي أُحِبُّكَ أيضاً، وهذا يُتْعِبُني كَثيراً.. صَدِّقْني يا سباعي، وأَحْياناً كَثيرَةً أَجِدُني عَصَبِيَّةً بِدونِ سَبَبٍ..

ويَمْسَحُ سباعي خَدَّها بِراحَةِ يَدٍ خَشِنَةٍ كَالمِبْرَدِ، ويَقولُ لَها:

- بي ما بِكِ.. كَما قالَ الشّاعِرُ، قَدَرُنا أَنَّ حُبَّنا فاكِهَةٌ مُحَرَّمَةٌ.. وقَدَرُنا أَلّا نَذوقَها كيلا نُطْرَدَ مِنْ جَنَّةِ العِفَّةِ والطَّهارَةِ!

أَنْهى كَلامَهُ وقَبَّلَها على جَبينِها قُبْلَةً خَفيفَةً، أَمّا هي فَقَدْ أَخَذَتْ يَدَهُ بَيْنَ راحَتَيها النّاعِمَتَينِ قائِلَةً:

- لا تَنْسَني يا سباعي! أَرْجوكَ لا تَنْسَني!!!

Scanned with CamScanner

18

عادَ سامح مِنْ هُنغاريا بِشَهادَةٍ مُتَفَوِّقٍ في الطِّبِّ، فَعَمَّتِ الفَرْحَةُ في بَيتِ الشَّيخِ سالِمٍ.. وفي القَرْيَةِ كُلِّها.. هذا الفَقيرُ ابنُ الفَقيرِ أَصْبَحَ طَبيباً! ويُعَلِّقُ أَحَدُ الزّائِرينَ المُهَنِّئينَ قائِلاً:

- عَظَمَةُ النِّظامِ الاشْتِراكي أَنَّهُ لا يُفَرِّقُ بَينَ غَنِيٍّ وبَينَ فَقيرٍ.

ويُعَقِّبُ آخَرُ:

- أَصْبَحَ التَّعْليمُ الجامِعيُّ هُنا غَيرَ مَقْدورٍ عَلَيهِ عِنْدَ مَحْدودي الدَّخْلِ، وأَصْبَحَ مَقْصوراً على الأَغْنِياءِ..

ويُعَقِّبُ ثالِثٌ:

- الغَريبُ في الأَمْرِ أَنَّ أَبْناءَ الأَغْنِياءِ -بِغالِبِيَّتِهِمْ- لا تَهُمُّهُمُ الشَّهاداتُ! صَدَقَ مَنْ قالَ: اللهُ يُطْعِمُ الحَلاوَةَ لِلَّذينَ بِلا أَسْنانٍ..

وبَعْدَ أَنْ أَمَّلَ الشَّيخُ سالم وسَهَّلَ وشَكَرَ الحاضِرينَ، تَوَجَّهَ بِالحَديثِ الى وَلَدِهِ سامح قائِلاً:

- تَذَكَّرْ يا وَلَدي أَوَّلاً وقَبْلَ كُلِّ شَيءٍ أَنَّ الطِّبَّ مِهْنَةٌ إِنْسانِيَّةٌ، والإِنْسانُ لَيسَ بِمِهْنَتِهِ، ولا بِطولِهِ وعَرْضِهِ بَلْ بِحَلاوَةِ لِسانِهِ، وحُسْنِ مُعامَلَتِهِ، وإِخْلاصِهِ في مِهْنَتِهِ!

أَمّا الوالِدَةُ سَليمَة فَكانَتْ فَرْحَتُها عارِمَةً. فَقَدْ عادَ سامح، وما عَلَيها الآنَ سوى زِيارَةِ مَقامِ أَحَدِ الأَنْبِياءِ لِإيفاءِ نَذْرٍ كانَتْ قَدْ قَطَعَتْهُ على نَفْسِها توفيهِ بَعْدَ عَودَةِ سامح ناجِحاً وسالِماً.. وها هوذا قَدْ عادَ كَما تَمَنَّتْ لَهُ أَنْ يَعودَ..

أَمّا فَرْحَةُ سباعي فَقَدْ كانَتْ مُزْدَوِجَةً، عَودَةُ سامح مُتَفَوِّقاً، ثُمَّ هذا المَديحُ الَّذي يُكالُ بِلا حِسابٍ على النِّظامِ الاشْتِراكِيِّ.. حَتّى الَّذينَ يُجاهِرونَ بِالعَداءِ لِتِلْكَ الأَنْظِمَةِ أَقَرُّوا بِفَضْلِها.. وتَذَكَّرَ العَمَّ صابِرًا[1] وما لَهُ مِنْ فَضْلٍ، وتَمَنّى لَو كانَ حاضِراً لِيُقاسِمَهُ فَرْحَتَهُ، ولكِنْ هَيهاتَ! كانَ كُلَّما مَرَّ أَمامَ بَيتِ العَمِّ صابر ووجَدَهُ مُقْفَلاً انْتابَتْهُ مَوجَةٌ مِنَ الحَنينِ المَشوبِ بِحُزْنٍ صادِقٍ عَميقٍ.. أَينَ العَمُّ صابر؟ إِنَّهُ هُناكَ في حِضْنِ الأَبَدِيَّةِ.. ورَشيد يَنْتَزِعُ الرَّغيفَ مِنْ شَدْقِ غُرْبَةٍ قاسِيَةٍ.. والعَمَّةُ أُمُّ رَشيد عَلَّقَتْ قَلْبَها حِرْزاً يَحْرُسُ البَيتَ، وسافَرَتْ مَعَ ابْنَتِها رِهام خَوفاً مِنَ الوِحْدَةِ، ومِنْ شَيخوخَةٍ قَدْ تُقْعِدُها، وتَحُطُّ مِنْ قَدْرِها.. ورِهام!! أَينَ أَنْتِ يا رِهام؟ يا أَقْرَبَ الخَلْقِ الى قَلْبي روحاً وأَبْعَدَهُمْ عَنْهُ جَسَداً.. وتَذَكَّرَ وَصِيَّتَها لَهُ بِأَلّا يَنْساها، فَكَشَطَتِ الذِّكْرى طَبَقَةً مِنْ حُزْنٍ مُعَتَّقٍ مُتَراكِمٍ على قَلْبِهِ المُتْعَبِ... وتَذَكَّرَ أَنَّهُ أَصْبَحَ مَسْكوناً، بَعْدَ غِيابِ العَمِّ صابر، بِهاجِسِ المَسْؤُولِ عَنْ رَفْعِ شَأْنِ الحِزْبِ بَينَ أَهْلِ قَرْيَتِهِ.. أَمّا راحَتُهُ الحَقيقِيَّةُ فَكانَ لا يَجِدُها إِلّا في مَحْدَدَتِهِ ساعَةَ يَهْوي بِمِطْرَقَتِهِ الثَّقيلَةِ على الحَديدِ المُحَمّى فَيَرِقُّ ويَلينُ.

***

Scanned with CamScanner

لَمْ يَطُلْ مُكوثُ سامح في البَيتِ مُنْتَظِراً رُدودَ رَسائِلَ أرْسَلَها الى العَديدِ مِنَ المُسْتَشْفَياتِ؛ فَأمامَهُ سَنَةُ تَمْرينٍ عَمَلِيٍّ يَجِبُ أنْ تَتِمَّ في المُسْتَشْفى كَي يُصْبِحَ طَبيباً، فَقَدْ تَسَلَّمَ رَدّاً مِنْ أحَدِ المُسْتَشْفَياتِ المَشْهورَةِ بِالمُوافَقَةِ على طَلَبِهِ ،فَعادَ الى الغُرْبَةِ مِنْ جَديدٍ، ولكِنَّها غُرْبَةٌ عَنِ البَيتِ لا عَنِ الوَطَنِ. تَقولُ أُمُّ سباعي:

- يا حَسْرَتي! مَحْكومٌ على سامِح أنْ يَعيشَ غَريباً وبَعيداً عَنْ عَيْنَيَّ شَحيحَتي النَّظَر..

ويَضْحَكُ سباعي ويَقولُ مُداعِباً:

- كَفى يا أُمّي! لَمْ نَعُدْ صِغاراً.. اتْرُكي هُمومَنا لَنا نَتَدَبَّرْ أمْرَها..

وتُقاطِعُهُ مُحْتَجَّةً:

- بَلْ تَظَلّونَ بِعَيني صِغاراً حَتّى لَو شِخْتُمْ!

يُواصِلُ سباعي دِعاباتِهِ لِأُمِّهِ:

- حَسَناً.. نَحْنُ لا نَكْبَر، وأنْتِ لا تَشيخينَ.. ولَكِنْ يا أُمّي لَمْ يَعُدْ مَطْلوباً مِنْكِ، بَعْدَ عَودَةِ سامِحٍ المَيمونَةِ، سِوى الاهْتِمامِ بِصَحَّتِكِ وصَحَّةِ والِدي والعَمَلِ على راحَتِكُما.. وتَأكَّدي أنَّ سُعْدى وسُعادَ تَعيشانِ أهْنَأَ عَيشٍ مَعَ زَوجَيهِما وأولادِهِما وبَناتِهِما.. وجَميعُنا رَهْنُ إشارَتِكِ.. اطْلُبي فَنُطاعي..!

لَيسَ مِنْ عادَةِ سَليمَة أُم شَدّاد أنْ تَسْتَسْلِمَ، قالَتْ مُحْتَجَّةً:

- كَيفَ سَأرْتاحُ وأنْتَ أمامي هَكذا لا تُحَرِّكُ ساكِناً!؟

أدْرَكَ سباعي ما تَرْمي إليهِ والِدَتُهُ.. تَناوَلَ كُرْسِيّاً وراحَ يُحَرِّكُهُ يَميناً ويَساراً، يقولُ ضاحِكاً:

- ها أنَذا أُحَرِّكُ ساكِناً..!

- كُفَّ عَنِ المُزاحِ قَليلاً.. أبْناءُ جيلِكَ صارَ عِنْدَهُم أحْفادٌ.. تَزَوَّجْ يا سباعي وأرِحْني وفَرِّحْ قَلْبَ والِدِكَ! هذا الّذي يَجْلِسُ ولا يُحْسِنُ غَيرَ الإصْغاءِ والضَّحِكِ!

- قَدْ فاتَني قِطارُ الزَّواجِ يا أُمّي..وكما تَقولينَ أنْتِ: الدُّنيا حُظوظٌ.. مَنْ مِنَ الصَّبايا في مُجْتَمَعِنا سَتَقْبَلُ بي وأنا مُقْبِلٌ على الأرْبَعينَ؟!

- أشِرْ بِإصْبَعِكَ فَقَطْ، وسَتَجِدُ سِتَّ السِّتّاتِ بَينَ يَدَيكَ....!

- هذا ما تَرَيْنَهُ أنْتِ يا أُمّي لا ما يَراهُ الآخَرونَ..

قالَ هذا مُنْهِياً الحَديثَ.. قَبَّلَ رَأسَ والِدَتِهِ ويَدَ والِدِهِ الّذي لايُحْسِنُ غَيرَ الإصْغاءِ والضَّحِكِ على حَدِّ قَولِ أُمِّهِ، وخَرَجَ مُتَّجِهاً نَحْوَ مَحْدَدَتِهِ.

***

Scanned with CamScanner

وتَمُرُّ الأيّامُ تَسْحَبُ بَعْضَها، وابْنُ آدَمَ ساهٍ عَمّا تُخَبِّئُهُ لَهُ مِنْ مَسَرّاتٍ ومِنْ أحْزانٍ فالأيّامُ هِيَ الأيّامُ في كُلِّ عَصْرٍ وأوانٍ، وما الإنْسانُ سِوى لُعْبَةٍ تَتَلَهّى بِها وما عَلَيهِ إلّا أنْ يَتَقَبّلَ راضِيَاً أو كارِهاً ما تَحْمِلُهُ لَهُ.. واللّبيبُ مَنْ يَتَعَلَّمُ سَريعاً كَيفَ يَسْتَقْبِلُ السَّرّاءَ والضَّرّاءَ، فَيَفْرَحُ في السَّرّاءِ ما طابَ لَهُ الفَرَحُ، ويُبَدِّلُ غَمَّهُ تَأمُّلاً في الضَّرّاءِ طالَتْ أمْ قَصُرَتْ سِيّانِ.. وسباعي الّذي تَتَلَمَذَ على يَدَي والِدِهِ روحاً وخُلُقاً، وعلى يَدي العَمِّ صابِرٍ فِكْرَاً، لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيهِ أنْ يَنْحَنِيَ أمامَ العاصِفَةِ لِيَنْتَصِبَ بَعْدَ مُرورِها، ويَكونَ أصْلَبَ عوداً وأمْتَنَ عَقيدَةً، وأكْثَرَ أمَلاً بِأنَّ ما حَدَثَ لِلْمَنْظومَةِ الاشْتِراكِيَّةِ لَمْ يَكُنْ سِوى تَكَسُّرِ الفُروعِ اليابِسَةِ ونُشورِ الأوراقِ الصَّفْراءِ عَنْ شَجَرَةِ الشُّيوعِيَّةِ المُبارَكَةِ بِما بَقِيَ عَلَيها مِنْ فُروعٍ خَضْراءَ .. والّذينَ رَقَصوا وهَلَّلوا في الشَّوارِعِ لِسُقوطِ الأنْظِمَةِ الشُّيوعِيَّةِ غابَ عَنْهُمْ أنَّ الفِكْرَ لا يَسْقُطُ، هذا الفِكْرُ الّذي هُوَ النّورُ الّذي يُنيرُ الدُّروبَ لِمِئاتٍ بَلْ آلافِ المَلايينَ مِنَ الكادِحينَ الزّاحِفينَ الى ساحاتِ الحُرِّيَّةِ والعَدالَةِ الاجْتِماعِيَّةِ، والتَّحَرُّرِ مِنْ شَراهَةِ المُحْتَكِرينَ..

لا يُنْكِرُ سباعي أنَّ الضَّرْبَةَ أرادوا لَها أنْ تَكونَ قاتِلَةً.. ولَمْ يَكُنْ مِنَ السُّهْلِ رُؤْيَةُ تَماثيلِ رُموزِ الفِكْرِ الماركسيِّ اللّينينيِّ تَتَهاوى أمامَ حُشودٍ تَقِفُ صامِتَةً، وتُحَدِّقُ.. وتُحَدِّقُ.. ولا تُبْدي حَراكاً..

كَيفَ؟ والّذينَ يُحَطِّمونَ الأنْصابَ اليَومَ هُمْ قادَةُ الأمْسِ مِنَ الرِّفاقِ الشُّيوعِيّينَ!! أرادوها دُوَلاً رَأسْمالِيَّةً فَلْيُجَرِّبوا .....

وظَلَّ القَلَقُ يُساوِرُ سباعي، خاصَّةً بَعْدَ أنْ أصابَ الضُّمورُ الكَثيرَ مِنَ الأحْزابِ الشُّيوعِيَّةِ الى أنْ حَضَرَ أوَّلَ اجْتِماعٍ لِقادَةِ الحِزْبِ وكَوادِرِهِ بَعْدَ هذا الزِّلْزالِ المُدَمِّرِ الّذي اجْتاحَ المَنْظومَةَ الاشْتِراكِيَّةَ.. ورَأى بِأُمِّ عَينِهِ وقَدْ غَصَّتِ القاعَةُ الرَّحْبَةُ بِالشّيبِ والشَّبابِ مِنَ الرِّفاقِ.. فَتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ.. وحينَ اسْتَلْقى على سَريرِهِ ذاكَ المَساءَ، جَدَّدَ العَهْدَ لِلْعَمِّ صابِرٍ الّذي رَآهُ فيما يَرى النّائِمُ مِنْ أحْلامٍ .

لَكِنَّ الّذي أراحَهُ تَماماً اشْتِراكُهُ في إحْياءِ ذِكْرى النَّصْرِ على النّازِيَّةِ في غابَةِ الجَيشِ الأحْمَرِ، وما رَآهُ مِنْ حُشودٍ قَدَّرَ عَدَدَها ضِعْفَ ما اعْتادَ أنْ يَراهُ في السَّنَواتِ السّابِقَةِ لِسُقوطِ الأنْظِمَةِ الاشْتِراكِيَّةِ.. كَأنَّهُمْ أرادوا أنْ يُرَدِّدوا الآيَةَ الكَريمَةَ" ...وأمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأرْضِ، وأمّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً....".

تَوَقَّعَ سباعي أنْ يَرى رِهام بِرِفْقَةِ زَوجِها نَديم، وابْنِهما شَدّاد الّذي لا شَكَّ أنَّهُ أصْبَحَ يافِعاً بِمُرورِ تِلْكَ السِّنينَ العِجافِ، وكَذلِكَ ابْنَتِهِما الّتي رُزِقا بِها بَعْدَ شَدّادٍ بِعِدَّةِ سَنَواتٍ.. تُرى هَلْ أخَذَتْ عَنْ أُمِّها جَمالَها وأدَبَها.. لَقَدِ انْقَطَعَتِ اللِّقاءاتُ ولَمْ تَنْقَطِعِ الصِّلَةُ بَينَ سباعي وبَينَ هذهِ العائِلَةِ الصَّغيرَةِ المَبْنِيَّةِ على المَحَبَّةِ والاحْتِرامِ.. والفَضْلُ عائِدٌ لِلرَّفيقِ نَديمٍ الّذي كانَ نِعْمَ الصَّديقُ لَهُ، ونِعْمَ الوَفِيُّ لِلْعَمِّ صابر بِإكْرامِ العَمَّةِ أُمِّ رَشيد،

Scanned with CamScanner

ونِعمَ الزَّوجُ بِحُبِّهِ الصَادِقِ لِرِهام.. وحَقيقَةً كانَ مِثالَ الشُيوعِيِّ الأَصيلِ الحَريصِ دائِماً على سُمْعَةِ الحِزْبِ والنَّاطِقِ الرَّسْمِيِّ بِلِسانِهِ؛ حَتّى تِلكَ الضَّرْبَةُ القاضِيَةُ لِلأَنْظِمَةِ الشُيوعِيَّةِ امْتَصَّها عن طَريقِ العَقْلِ الفاعِلِ .. لا عَنْ طَريقِ العاطِفَةِ.. وهَلْ يَنْسى سباعي ما سَمِعَهُ مِنْهُ عَنْ حالِ الوَضْعِ المُتَرَدّي في الاتِّحادِ السُوفييتي وباقي الدُّوَلِ الاشْتِراكِيَّةِ، ومَدى تَخَوُّفِهَ مِنْ سُقوطِها.....

كانَ سباعي ساهِماً، مُنْساقاً وراءَ أَفْكارِهِ، وإذا بِصَوتٍ أُنْثَوِيٍّ يَقولُ:

- ما لَكَ صامِتٌ كَأَنَّكَ في جَنازَةٍ؟!

رَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَى حوريَّةً لا يدري من أي بحرٍ خرجت لهُ اسمها نَتالي.. تركته يخرجُ من دهشتِهِ وتابعت..

- قُلْ لي بِصِدْقٍ، بِمَنْ كُنْتَ تُفَكِّرُ؟

- بِأَصْدِقاءَ لَمْ أَلْتَقِ بِهِمْ مُنْذُ سَنَواتٍ وتَوَقَّعْتُ حُضورَهُمْ..

- ظَنَنْتُ أَنَّكَ كُنْتَ تُفَكِّرُ بي يا عَربوش؟!

وَيَضْحَكُ سباعي ضحكةً تفضحُ ما في صدرِهِ من رِضا عن قولها (عَربوش)، ورأى فيها بدايةً مشجعةً في حديثٍ بدأ مجاملةً وإنتهى ملاطفةً، قَطَعَهُ صَوتُ أَمَلِ مُرقُس يَصْدَحُ بِلَحْنٍ أُغْنِيَّةِ كاتيوشا .. قالَ سباعي بِمَرَحِ طِفْلٍ:

- أَتَعْرِفينَ المُغَنِّيَةَ؟ إنَّها الرَّفيقَةُ أَمَل مُرقس فَنّانَةٌ شُموليَّةٌ راقِيَةٌ..

- أَجَلْ.. أَلَمْ أَعِدْكَ بِأَنّي سَأَعْمَلُ جاهِدَةً على مَعْرِفَتِكُمْ كَما أَنْتُمْ ولَيسَ كَما صَوَّروكُمْ لَنا! شاهَدْتُها مِراراً على الشَّاشَةِ، وأَعْرِفُ كَذلكَ ميرا عَوَض، وَأَذْكُرُ فِيلْماً سينَمائِيّاً يَقومُ بِبُطولَتِهِ مُمَثِّلٌ عَرَبِيٌّ جَميل مَعَ مُمَثِّلِينَ آخَرينَ مِنْ يَهود وَمِنْ عَرَب..

- إنَّهُ محمّد بَكري في فيلم وراء القُضْبان..

- نَعَمْ، إنَّهُ هُوَ، وقَدْ شاهَدْتُ لَهُ أَفْلاماً جَميلَةً أُخرى..

يُمَرِّرُ سباعي راحَةَ يَدِهِ الخَشْنَةَ على شَعْرِها الأَمْلَسِ المُسْدَلِ، يَقولُ:

- بِدايَةٌ مُوَفَّقَةٌ في التَّعَرُّفِ عَلَينا، نَحْنُ العَرَبَ، لا شَكَّ أَنَّهُمْ حَمَّلوكِ صورَةً أُخرى عَنّا غَيرَ الّتي حَمَلْتِها مِنْ قَبْلُ..

نَظَرَتْ إِلَيهِ نَظْرَةً دَلَّتْ على أَنَّها لا تُريدُ أَنْ تُفْسِدَ عَلَيها سَماعَ الأُغْنِيَّةِ، صَمَتا وَراحا يُصْغِيانِ بِحَماسٍ.. وعِنْدَما أَنْهَتْ أَمَل مرقس أُغْنِيَتَها وخَفَتَتْ عاصِفَةُ التَّصْفيقِ، أَخْرَجَ سباعي دَفْتَراً مِنْ حَقيبَةِ يَدِهِ وراحَ يَقْرَأُ القَصيدَةَ بِالعَرَبِيَّةِ وتُتَرْجِمُها الى العِبْرِيَّةِ:

كانَتْ أَشْجارُ التُّفّاحِ والخَوخِ مُزْهِرَةً
فَوقَ النَّهْرِ يَهْبُطُ ضَبابُ الصَّباحِ
صَعِدَتْ كاتيوشا الصَّبِيَّةُ على حافَّةِ الجُرفِ
والنَّهْرُ يُغَلِّفُهُ الضَّبابُ
على حافَّةِ النَّهْرِ بَدَأَتْ كاتيوشا تُغَنّي
عَنِ النَّسْرِ الرَّماديِّ الشّامِخِ في السُّهولِ

Scanned with CamScanner

وعَنِ الَّذي تُحِبُّهُ كاتيوشا مِنْ كُلِّ قَلْبِها
وتَصونُ رَسائِلَهُ الَيها
أَيَّتُها الأُغْنِيَّةُ..
الأُغْنِيَّةُ السّاطِعَةُ عَنِ الصَّبِيَّةِ العَذْراءِ
طيري الى حُدودِ الشَّمْسِ
طيري مِثْلَ طائِرٍ
الى الجُنْدي البَعيدِ عِنْدَ الحُدودِ
مِنْ كاتيوشا أَوْصِلي السَّلامَ
لَعَلَّهُ يُفَكِّرُ بِالعَذْراءِ القَرَوِيَّةِ
لَعَلَّهُ يَسْمَعُ أُغْنِيَّةَ كاتيوشا
وكَما يَحْرُسُ أَرْضَ الوَطَنِ العَزيزِ
سَوفَ تَحْرُسُ كاتيوشا حُبَّها الى الأَبَدِ.

أَنْهى قِراءَةَ القَصيدَةِ، وبَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْ حالَةِ الانْفِعالِ الَّتي اعْتَرَتْهُ، قالَ:

- هذِهِ الأُغْنِيَّةُ من كَلِماتِ ميخائيل ايزاكوفيكسي، ومِنْ أَلْحانِ ماتفي بلانتر، وغَنَّتْها لِأَوَّلِ مَرَّةٍ المُغَنِّيَةُ الشَّعْبِيَّةُ الرّوسِيَّةُ ليديا روسلانوفا، وكانَتْ تُغَنّي أَيّامَ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الثّانِيَةِ..
- جَميلٌ جِدّاً.. ولَيسَ صُدْفَةً، إِذاً، أَنَّها تُغَنّي في ذِكْرى النَّصْرِ على النّازِيَّةِ.

لَمْ يَطُلْ انْقِطاعُ الغِناءِ في الغابَةِ حَتّى انْبَعَثَ مِنْ جَديدٍ، ولَكِنْ كَنَشيدٍ جَماعِيٍّ مِنْ هُنا وَهُناكَ وهُنالِكَ بالعَرَبِيَّةِ والعِبْرِيَّةِ

والرّوسِيَّةِ والرّومانِيَّةِ: إِنَّهُ نَشيدُ الأُمَمِيَّةِ الخالِدُ، الَّذي يُغَنّى بِكُلِّ لُغاتِ العالَمِ، وراحَ سباعي يَقُصُّ على نَتالي حِكايَةَ هذا النَّشيدِ..
تَبَسَّمَتْ وقالَتْ:

- لا تُتْعِبْ نَفْسَكَ يا عَزيزي، إِنَّهُ لِلشّاعِرِ الفَرَنْسِيِّ أُوجين بوتيه أَثْناءَ ثَورَةِ كومونَةِ باريس الاشْتِراكِيَّةِ تَخْليداً لَها.. أَمْ تُراكَ تَظُنُّ أَنَّكَ وَحْدَكَ تَعْرِفُ كُلَّ شَيءٍ!

قَلَّبَ سباعي بِضْعَ صَفَحاتٍ في الدَّفْتَرِ الَّذي بِيَدِهِ وقالَ، اسْمَعي:

هُبّوا ضَحايا الاضْطِهادْ ، ضَحايا جوعِ الاضْطِرارْ
بُزْكانُ فِكْرٍ في اتِّقادْ ، هذا آخِرُ انْفِجارْ
هَيّا نَحْوَ كُلِّ ما مَرَّ ، ثوروا حَطِّموا القُيودْ
شَيِّدوا الكَونَ الجَديدَ حُرّ ، كونوا أَنْتُمُ الوُجودْ
بِجُموعٍ قَوِيَّةٍ ، هُبّوا لاحَ الظَّفَرْ
غَدُ الأُمَمِيَّةِ ، يُوَحِّدُ البَشَرْ

يَكْفي عَزاءً بِالخَيالْ ، عَلَينا العِبْءُ لا مَناصْ
فَيا عُمّالُ لِلنِّضالْ ، فَفي يَمينِنا الخَلاصْ
احْموا الكورَ ضَعوا الحَديدْ ، ودُقّوهُ على احْمِرارْ
يُريدُ الشَّعْبُ أَنْ يَسودْ ، فَكّوا الرّوحَ مِنْ إِسارْ
بِجُموعٍ قَوِيَّةٍ ، هُبّوا لاحَ الظَّفَرْ

Scanned with CamScanner

غَـدُ الأُممـيَّةِ . يُوَحِّـدُ البَشَـرْ

حُكْـمٌ وشَرْعٌ ظالِمانِ . مَأجـورانِ لِلْأَغنِـياءْ
حَديثٌ فارِغُ المَعـاني . ذِكْـرُ حُقوقِ الفُقَراءْ
دَعُوا الهُزْءَ بِالمُساواةْ . فَلِلمُســاواةِ طَريـقْ
الحُقوقُ بِالواجِـباتْ . والواجِباتُ بِالحُـقوقْ
بِجُمـوعٍ قـَوِيَّةٍ . هُبّـوا لاحَ الظَّفَـرْ
غَـدُ الأُممـيَّةِ . يُوَحِّـدُ البَشَـرْ

أَسيادُنا المُسْتَثْمِرونا . فَـوقَ شَـواهِقِ العُروشْ
كَمْ سَـلَبونا المَلايينا . ولَمْ يُبْقوا لَنا القُروشْ
ذَهَبٌ فَوقَ أَنْ يُحَدَّ . مُصَّ مِنْ دَمِ العُــروقْ
يُريدُ الشَّعْبُ أَنْ يَرُدَّ . ولَمْ يُرِدْ سِوى الحُقوقْ
بِجُمـوعٍ قـَوِيَّةٍ . هُبّـوا لاحَ الظَّفَـرْ
غَـدُ الأُممـيَّةِ . يُوَحِّـدُ البَشَـرْ

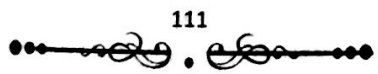

إِنَّنا سَكِرْنا مِنْ دُخـانْ . أَسيادٍ سَمَّموا الحَياةْ
أَذيعـوا دَعْـوَةَ الأَمـانْ . فينا وسُــحْقٌ لِلطُّغاةْ
فَلِلإِضْرابِ يا جُيــوشْ . فَفي إِضْرابِنا الخَلاصْ
أَنْ يَأْبى ذَلِكَ الوَحوشْ . فَعِنْدَنا لَـهُمُ الرَّصاصْ
بِجُمـوعٍ قـَوِيَّةٍ . هُبّـوا لاحَ الظَّفَـرْ
غَـدُ الأُممـيَّةِ . يُوَحِّـدُ البَشَـرْ

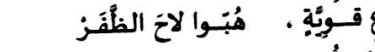

العُمّالُ والفَــلّاحــونْ . جَميعاً حِزْبُ الكادِحينْ
أَرْدَنـا مُلْـكَ المُنْتِــجينْ . فَـما بَقـاءٌ لِلخامِلـينْ
كَـمْ تُمَـزِّقُ اللَّحْمَ مِـنّا . مَخـالِبُ المُفْــتَرِسـينْ
أُجْلوا سودَ الغِرْبانِ عَنّا . تُشْرِقُ الشَّمْسُ كُلَّ حينْ
بِجُمـوعٍ قـَوِيَّةٍ . هُبّـوا لاحَ الظَّفَـرْ
غَـدُ الأُممـيَّةِ . يُوَحِّـدُ البَشَـرْ

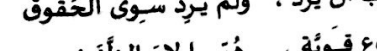

Scanned with CamScanner

لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ على سباعي أَنْ يُتَرْجِمَ النَّشيدَ الى العِبْرِيَّةِ، ولَكِنَهُ تَرْجَمَهُ بِشَكْلٍ أو بِآخَرَ.. فاما مِنْ مَكانَهما وسارا يَداً بِيَدٍ، وجالا بَينَ جُموعِ المُتَواجِدينَ في الغابَةِ، والْتَقَيا مَعَ كَثيرٍ مِنَ المَعارِفِ مِنْ مَرّاتٍ سابِقَةٍ، ومِنَ الرِّفاقِ والأَصْدِقاءِ، أَمّا سباعي فَلَمْ يَسْلَمْ مِنَ اللَّمْزِ حيناً وَمِنْ عِباراتِ الإطْراءِ حيناً؛ كَيفَ لا واجْتِماعُهُما مَعاً كَاجْتِماعِ زَهْرَتَينِ جَميلَتَينِ في كَأسٍ مِنَ الكريستالِ!

كانَ النَّهارُ حافِلاً، وقَدْ أَعادَ الأَمَلَ الغارِبَ لِلنُّفوسِ المُتْعَبَةِ، وأما لسباعي ونتالي فقد كان يوم قرانٍ باركه القدّيس فالنتين!..

- صَباحُ الخَيرِ يا عَمُّ سباعي..

أَطْفَأَ سباعي ماكِنَةَ اللِّحامِ ورَفَعَ الغِطاءَ الواقي عَنْ وَجْهِهِ، فَرَأى (قاسِم) يَسُدُّ بابَ المَحْدَدَةِ بِطولِهِ الفارِعِ، وبِبُنْيَتِهِ الصُّلْبَةِ رغْمَ صِغَرِ سِنِّهِ، يَرُدُّ سباعي بِحَماسٍ:

- أَهْلاً أَهْلاً قاسِم! مَتى خَرَجْتَ مِنَ السِّجْنِ؟

- قَبْلَ يَومَينِ.. كَيفَ حالُكَ ياعَمُّ سباعي؟

- لَيسَ بِخَيرٍ ما دُمْتَ داخِلاً خارِجاً مِنَ السِّجْنِ، إعْقَلْ يا قاسِم.

- ما العَمَلُ يا عَمُّ سباعي.. المَنْحوسُ مَنْحوس ولو عَلَّقوا لَهُ فانوس!

- دَعْكَ مِنْ طَقِّ الحَنَكِ، واسْمَعْني جَيِّداً.. أُريدُكَ في أَمْرٍ هامٍ!

- ماذا!؟ هَلْ تُريدُ أَنْ أَضْرِبَ لَكَ أَحَداً؟!

ضَحِكَ سباعي ضِحْكَةً جَعَلَتْ قاسِماً يُقَهْقِهُ أيضاً:

- يا أَهْبَل.. أَلا تُفَكِّرُ سِوى بِالضَّرْبِ والإساءَةِ الى الآخَرينَ؟! أُريدُكَ أَنْ تَأْتي غَداً صَباحاً، سَوفَ تَعْمَلُ مَعي هُنا في المَحْدَدَةِ.. لا تَنْسَ أَنْ تَأْتي بِمَلابِسِ الشُّغْلِ..

نَظَرَ قاسِمٌ نَظْرَةَ مَنْ لا يُصَدِّقُ ما يَسْمَعُ، ولَولا مَعْرِفَتُهُ بِأَنَّ سباعي لا يَمْزَحُ بِمِثْلِ هَذِهِ الأُمورِ لَاعْتَبَرَها دِعابَةً ثَقيلَةً، بَلْ وثَقيلَةً جِدّاً.. هَمَّ بِتَقْبيلِ يَدِ سباعي، لكِنَّ سباعي ضَمَّهُ الى صَدْرِهِ كَمَنْ يَضُمُّ ابْناً عَزيزاً على قَلْبِهِ..

Scanned with CamScanner

قاسمٌ هذا بَدَأتْ رِحْلَةُ عَذابِهِ مُنْذُ سِنِي طُفولَتِهِ المُبَكِّرَةِ بِطَلاقِ والِدَيْنِ مُكارِهَيْنِ، وتَرْكِهِ بِرِعايَةِ جَدَّةٍ تَعْرِفُ كَيفَ تَغْمُرُ حَفيدَها حُبّاً. أمّا التَّرْبِيَةُ فَقَدْ جاءَتْ كَيفَما اتَّفَقَ. لَقَدْ ذاقَ بُؤْساً مِنْ نَوعٍ خاصّ: إنَّهُ يُتْمُ المُبْعَدِ عَنْ والِدَيْنِ ما زالا على قَيدِ الحَياة، حَتّى بَعْدَ أنْ بَنى كُلٌّ مِنْهُما أُسْرَةً مِنْ جَديدٍ لَم يُفَكِّرْ أحَدُهُما أو كِلاهُما بِإعادَتِهِ مِنْ عِنْدِ جَدَّتِهِ وضَمِّهِ إليهِ؛ وشَبَّ قاسِمٌ قَوِيَّ البُنْيَةِ، وبالرُّغْمِ مِنْ ذَكائِهِ، تَرَكَ المَدْرَسَةَ وأخَذَ طَريقَ التَّمَرُّدِ على كُلِّ شَيءٍ، حَتّى على جَدَّتِهِ الّتي أحَبَّها حُبّاً كَبيراً. وطَريقُهُ هذا عَرَّفَهُ على السِّجْنِ باكِراً، وباكِراً أيضاً أحَسَّ نُفوراً مِنَ الغالِبِيَّةِ الغالِبَةِ مِنَ النّاسِ.. وحينَ سَمِعَ كَلامَ سباعي لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَليهِ أنْ يُصَدِّقَهُ، وحينَ ضَمَّهُ الى صَدْرِهِ أحَسَّ أنَّهُ قَدْ أضاعَ والِدَهُ في زَحْمَةِ الحَياةِ، والآنَ قَدْ وَجَدَهُ.. وأقْسَمَ في سَريرَتِهِ أنَّهُ سَيَعْمَلُ المُسْتَحيلَ كَي يُرضي سباعي فَلا يَخْسَرَهُ!

لَمْ يَنْعَبْ سِباعي في إرْشادِ قاسِمٍ، فَقَدْ وجَدَهُ كَالأرْضِ البورِ الّتي تَنْتَظِرُ مَنْ يَأتي فَيَزْرَعاها ويَجْعَلُها أرْضاً صالِحَةً لِلزِّراعَةِ.

***

عادَ الدُّكتور سامِح مِنَ المُسْتَشْفى مُنْهَكاً.. اسْتَقْبَلَتْهُ والِدَتُهُ بِكَأسٍ مِنْ عَصيرِ اللَّيمونِ المُحَلّى.. إنَّهُ مَشْروبُهُ المُفَضَّلُ، بَعْدَها مُباشَرَةً دَخَلَ غُرْفَتَهُ لِيَرْتاحَ مِنْ عَناءِ يَومٍ صاخِبٍ.. هَذِهِ هِيَ

طَبيعَةُ عَمَلِ الطَّبيبِ في المُسْتَشْفى، إنَّها كَالبَحْرِ، يَتَحَكَّمُ فيها المَدُّ والجَزْرُ.. وفي المَساءِ نَهَضَ وقَدِ اسْتَعادَ نَشاطَهُ ومَرَحَهُ، سَأَلَ:

- أينَ أبي يا أعَزَّ أُمٍّ في الدُّنيا!؟

- لَيسَ مِنْ عادَتِكَ أنْ تَسْأَلَ عَنْ والِدِكَ، فَأنْتَ تَعْرِفُ أينَ يَكونُ في مِثْلِ هذا الوَقْتِ كُلَّ يَومٍ.. إنَّهُ يُمارِسُ رِياضَةَ المَشْيِ، لا يَلْبَثُ أنْ يَعودَ.. ما الأمْرُ؟

- أُريدُكِ أنْ تَخْطِبي لي سَلْمى بِنْتَ أحْمَد السَّلْمان.. أنْتِ تَعْرِفينَها، وقَدْ اقْتَرَحْتُها عَلَيَّ مَرَّةً.

قالَتِ الوالِدَةُ والفَرَحُ يَأخُذُ مِنْها كُلَّ مَأخَذ:

- الحَمْدُ لِلهِ الَّذي أمَدَّ في عُمْري كي أسْمَعَ مِنْكَ هذا الكَلامَ.. كَمْ كُنْتُ مُرْتَعِبَةً أنْ تَكونَ مِثْلَ أخيكَ سباعي، فَأموتَ كَمَداً! ولكِنْ أخْبِرْني.. كَيفَ أخَذْتَ قَرارَكَ هذا؟

- لَقَدْ رافَقْتُ والِدَها الى المُسْتَشْفى، رَقَدَ عِنْدَنا أُسْبوعاً، لَمْ تَتْرُكْهُ لَحْظَةً، حَقيقَةً يا أُمّي إنَّها مِثالٌ في الجَمالِ والأخْلاقِ،ويَنْبوعٌ مِنَ الحَنانِ، وفَوقَ ذا قَلَّما رَأيْتُها مِنْ دونِ كِتابٍ تَقْرَؤُهُ، وعِنْدَما فاتَحْتُها في المَوضوعِ أجابَتْ بِلا تَكَلُّفٍ، قالَتْ وبَسْمَةٌ رَقيقَةٌعلى شَفَتَيها:

- لِكُلِّ حادِثٍ حَديثٌ!!

مِنْ جَوابِها هذا يا أُمّي أحْسَسْتُ أنَّها سَتَكونُ عَوناً لي على صُعوباتِ الحَياةِ لا عَوناً لَها عَلَيَّ..

***

Scanned with CamScanner

نادَتْ الوالِدَةُ على سباعي كَي يَرُدَّ على التِّلِفون يُساوِرُها قَلَقٌ مُزْمِنٌ عِنْدَها، يُعاوِدُها كُلَّما رَنَّ في ساعاتِ الصَّباحِ الباكِرةِ، رَفَعَ سباعي السَّمّاعَةَ وإذا بِصَوتِ نَتالي يَنْسابُ رَقيقاً دافِئاً:

- صَباحُ الخَيرِ عَربوشي..

- صَباحُ النُّورِ يا مَنْ أُحِبُّها كَما أَحَبَّ مَحْمود دَرويش ريتا!

قالَها بِهَمْسٍ كَيلا تَسْمَعُهُ الوالِدَةُ.. أَمّا هِيَ فَقَدْ تابَعَتْ مَكالَمَتَها مُحْتَجَّةً:

- يا بَخيل في حُبِّكَ لي! أُريدُ أَنْ يَكونَ حُبُّكَ لي أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ شاعِرِكُم هذا لَريتا..

- كَما تُريدينَ.. ولكِنْ ما سِبَبُ مُهاتَفَتِكِ هَكَذا باكِراً؟

- لَقَدِ رَأَتْ إدارَةُ الكيبوتسِ أَنَّها بِحاجَةٍ الى حَدّادٍ إضافِيٍّ في المَحْدَدَةِ، وقَدْ حَكَيتُ لَهُمْ عَنْ مهارَتِكَ واقْتَرَحْتُكَ فَوافَقوا؛ بِإمْكانِكَ تَسَلُّمِ عَمَلِكَ مِنَ اليَومِ إنْ أَرَدْتَ.. وهذا ما كانَ.... وبعْدَ أَنِ وافَقَ الطَّرَفانِ على شُروطِ العَمَلِ، أَعَدّوا لَهُ غُرْفَةً تَكونُ سَكَناً خاصّاً يَرْتاحُ فيهِ نَهارَاً، وقَدْ يَبيتُ فيهِ مَتى شاءَ..

ما شَجَّعَ سباعي على القُبولِ اعتِمادُهُ الكُلِّيُّ على قاسم الَّذي شَرِبَ كُلَّ فُنونِ الصَّنْعَةِ شُرْبَاً! وفي مُدَّةٍ لَمْ تَخْطُرْ على بالِ سباعي، فَأَحَبَّهُ كَابْنٍ لَهُ لا كَعامِلٍ يَعْمَلُ مَعَهُ، وكانَ لا يَرْفُضُ لَهُ طَلَبَاً.. أَمّا المُشَجِّعُ الأَهَمُّ فكانَ قُرْبُهُ مِنْ نَتالي الَّتي أَصْبَحَتْ بِالنِّسْبَةِ لَهُ الصَّديقَةَ الَّتي لاغِنَىً عَنْها....ويَذْكُرُ كَمْ كانَ ارتباكُهُ شَديداً عِنْدَما فاجَأَتْهُ مَرَّةً بِقَولِها إنَّها سَتَبيتُ لَيلَتَها مَعَهُ! وكَيفَ

ضَحِكَتْ مِنْ سَذاجَتِهِ عِنْدَما سَأَلَها ما يَكونُ جَوابُها لِمَنْ يِسْأَلُها مِنْ أَعْضاءِ الكيبوتس عَنْ تَصَرُّفِها هذا! قالَتْ:

- عادِيٌّ جِدّاً يا عَرْبوشي! نَحْنُ هُنا في الكيبوتس لا في قَرْيَتِكَ.. الجَميعُ يَعْرِفونَ عَنْ عَلاقَتي بِكَ! كانَتْ أَثْناءَ ذلِكَ تَتَجَرَّدُ مِنْ مَلابِسِها .. أَمّا هُوَ فَقَدْ ظَلَّ جامِداً أَمامَها لا يَدْري ما يَفْعَلُ.. وعَرَفَتْ بِحَدْسِ الأُنْثى المُجَرِّبَةِ أَنَّهُ لَمْ يُضاجِعْ أُنْثى مِنْ قَبْلُ، فَراحَتْ تُلاطِفُهُ حيناً وحيناً تَخْلَعُ عَنْهُ بَعْضَ مَلابِسِهِ، واعْتَرَفَ لَها بِاحْتِرامِهِ والِدَهُ وتَأْثيرِ تَرْبِيَتِهِ الصّارِمَةِ لَهُ، وكَمْ كانَ راضِيَاً بِهذِهِ التَّرْبِيَةِ لِما أَكْسَبَتْهُ مِنَ احْتِرامِ أَهْلِ قَرْيَتِهِ لَهُ، ورَأَوا فيهِ المِثالَ الرّاقي لِعُضْوٍ قِيادِيٍّ في حِزْبٍ تَناقَلَ النّاسُ عَنْهُ الأَباطيلَ.. وحَكى لَها قِصَّتَهُ يَومَ كانَ ناطورَاً، مَعَ تِلْكَ الفاتِنَةِ الَّتي راوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ بِتَجَرُّدِها أَمامَهُ، وكَيفَ هَرَبَ وشَتائِمُها تُلاحِقُهُ.. كانَتْ نَتالي تُصغي الَيهِ صامِتَةً، حَضَنَتْهُ بِحَنانِ الأُمِّ هَذِهِ المَرَّةَ ، لا بِوَلَهِ الحَبيبَةِ، قالَتْ:

- العَلاقَةُ بَيْنَ رَجُلٍ وامْرَأَةٍ في عُرْفِنا يا بَتولي، هي رَغْبَةٌ يَشْتَرِكُ فيها اثْنانِ بِاتِّفاقِهِما، ولا دَخْلَ لِأَحَدٍ آخَرَ في ذلكَ! حَتّى وَإِنْ لَمْ تَنْتَهِ بِالزَّواجِ.. أَتَفْهَمْ يا عَرْبوشي؟ لا تُتْعِبْ قَلْبَكَ وقَلْبي وبِأَفْكارِكَ هذِهِ أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ!

Scanned with CamScanner

21

لَمْ تَطُلْ مُدَّةُ خِطْبَةِ الدكتور سامح لِسَلْمى، وتَمَّ الزَّواجُ بِما يُرْضي والِدَهُ، وما يُرْضيهِ هُوَ أَنْ يَحْضُرَ رِفاقُهُ مِنْ رِجالِ دينٍ، ولَنْ يَحضُروا إنْ لَمْ يَكُنْ العُرْسُ دينيّاً أي بِلا غِناءٍ وَرَقْصٍ، وبِلا حَتّى زُغْرودَةٍ واحِدَةٍ تُطْلِقُها أُخْتٌ تَعْبيراً عَنْ فَرْحَتِها بِزَواجِ أَخيها!

... ويَتَذَكَّرُ سباعي أَيّامَ زَمانٍ، حَيثُ كانَتْ تُقامُ الأَفْراحُ في السّاحاتِ العامَّةِ .. وتَرَحَّمَ على الشّاعِرِ الشَّعْبِيِّ الوَطَنِيِّ ابنِ قَرْيَةِ إقْرِث، والمُهَجَّرِ الى قَرْيَةِ الرّامَةِ أَبي نَبيل عَوني سبت وقَفَزَتْ صورَتُهُ الرّائِعَةُ أَمامَهُ بِقُمْبازِهِ وكوفِيَّتِهِ الرّوز وعِقالِهِ وحِذائِهِ الأَبيَضِ، وكَيفَ كانَ يَصولُ ويَجولُ أَمامَ صَفِّ (السَّحْجَةِ) مُنْشِداً.. (بَدْنا حُرِّيَة وسَلام). كانَ هذا يَمْلأُ صُدورَ الشَّبابِ حَماسَاً وطَرَباً، ويَمْلأُ صُدورَ رِجالِ الأَمْنِ غِلّاً وغَيظاً!

كانَ لِدَعْوَةِ سباعي لِأَعْضاءِ الكيبوتسِ بِما فيهم نَتالي صَدَىً إيجابِيٌّ في القَرْيَةِ، على عَكْسِ ما تَوَقَّعَ هُوَ، خاصَّةً حُضورَ بِعْضِ نِساءِ الكيبوتس وعلى رَأْسِهِمْ نَتالي الفاتِنَةُ الَّتي بِجَمالِها لَفَتَتْ أَنْظارَ الحاضِرينَ مِنْ رِجالٍ ومِنْ نِساءٍ، وطَبيعيٌّ، لَمْ يَنْجُ سباعي مِنْ الأَسْئِلَةِ الَّتي انْهالَتْ على رَأْسِهِ، مُعْظَمُها كانَ مِنَ الشَّبابِ أَصْحابِهِ عَنْ تِلْكَ السّاحِرَةِ، ولَمْ يَخْلُ بَعْضُها مِنْ خُبْثٍ! أَعَدّوا لَهُمْ مائِدَةً خاصَّةً وكانَ مِنْ واجِبِ سباعي أَنْ يُعَرِّفَ الحاضِرينَ

على ضُيوفِهِ اليَهود بِالاسْمِ، وعَرَّفَ عَنْ نَتالي بِأَنَّها صَديقَةٌ تَقَدُّمِيَّةٌ مُتَعاطِفَةٌ مَعَ قَضايانا . ومَحْسوبَةٌ على مُعَسْكَرِ السَّلامِ في البِلادِ، وأَنَّها مُهَنْدِسَةُ ديكورٍ لا تُنافَسُ..

***

تَأَخَّرَ سباعي في مَحْدَدَةِ الكيبوتس، مَرَّ على الحَمّاماتِ وأَخَذَ حَمّاماً بِالماءِ الباردِ- كَعادَتِهِ صَيفاً وشِتاءً- دَخَلَ غُرفَتَهُ فَوجَدَ نَتالي في انْتِظارِهِ؛ أَخَذَها بَيْنَ ذِراعَيهِ القَوِيَّتَيْنِ وضَمَّها الَيهِ ضَمَّةً جَعَلَتْها تَئِنُّ موجَعَةً، قالَتْ:

- ما بِكَ اليَومَ؟ لَيسَ مِنْ عادَتِكَ ولا مِنْ طَبْعِكَ أَنْ تَقْسو عَلَيَّ مِثْلَما تَفْعَلُ الآنَ!

قالَ:

- مَنْ يَعْلَقْ في شِباكِ سِحْرِكِ قَدْ يَفْعَلُ أَيَّ شَيءٍ دونَ أَنْ يَدْري ما يَفْعَلُ!

قالَ هذا وخَرَجا يَداً بِيَدٍ مُتَّجِهَيْنِ الى غُرْفَةِ الطَّعامِ وَمِنْ ثَمَّ الى النّادي حَيثُ يَسْهَرُ مَنْ لا دَوامَ لَدَيهِمْ مِنْ أَعْضاءِ الكيبوتس، في هذا النّادي كانَتْ تَدورُ النِّقاشاتُ ولا تَزالُ بَيْنَ سباعي وبَيْنَهُمْ، وبِالرَّغْمِ مِنَ ادِّعاءاتِهِم بِأَنَّهُمْ عَقْلانِيّونَ، وأَنَّهُمْ يَنْتَمونَ الى حِزْبٍ يَساريٍّ، فَكانوا يَتَّفِقونَ في أَمْرٍ ويَخْتَلِفونَ في أُمورٍ كَثيرَةٍ، على رَأْسِها حَلُّ القَضِيَّةِ الفِلَسْطينِيَّةِ على أَساسِ قَراراتِ هَيئَةِ الأُمَمِ.. هوَ يَقولُ لا حَلَّ بِدونِ حَقِّ العَودَةِ وقيامِ الدَّولَةِ الفِلَسْطينِيَّةِ

Scanned with CamScanner

وعاصِمَتُها القُدْسُ الشَّرْقِيَّةِ.. وهُمْ يَقولونَ لا عَودَةَ لِغَيرِ اليَهودِ لإسْرائيلَ ولا تَنازُلَ عَنْ القُدْسِ مُوَحَّدَةً، أمّا قيامُ دَولَةٍ لِلْفِلَسْطينِيّينَ بِجانِبِ دَولَةِ إسْرائيلَ فهذا حَقُّهُمْ.....ويَتولُ: الجَميعُ يُفَكِّرونَ بِاتِّجاهٍ واحِدٍ..تَقسيمِ فَلَسطين، لِمَ لا تَكونُ فِلَسْطينُ دَولَةً لِلْعَرَبِ ولِلْيَهود؟!..

ويَضْحَكونَ ويَقولونَ: لا يا سَيِّدا هذا لَنْ يَكونَ.. بَعْدَ عِقْدَينِ مِنَ الزَّمَنِ، مَعَ غَزارَةِ الإنْجابِ عِندَكُمْ سَيَكونُ العَرَبُ أكْثَرَ مِنَ اليَهودِ، وسَتُصْبِحُ إسْرائيلُ دَولَةً لِأَبْناءِ إسْماعيل!

وكانَ سباعي على قَناعَةٍ تامَّةٍ بِأَنَّ الاحْتِلالَ وبِناءَ المُسْتَوطَناتِ هُما سَبَبُ المَصائِبِ كُلِّها في هذِهِ البِلادِ، وما دامَ الوَضْعُ هكذا فَلا مَكانَ لِلسَّلامِ، ولا أمَلَ في تَوَقُّفِ العُنْفِ! كانَ يَقولُها ويَخْرُجُ، تارِكاً وراءَهُ نِقاشاً حادّاً ما بَينَ مُعارِضينَ ومُوافِقينَ..

لَمْ تَتَّجِهْ نَتالي نَحْوَ غُرْفَتِها، بَلْ رافَقَتْ سباعي الى غُرْفَتِهِ، شَجَّعَها في ذلكَ دُخولُهُ عَلَيها حِينَ عَودَتِهِ مِنَ العَمَلِ، وضَمُّهُ لَها تِلْكَ الضَّمَّةَ، إنَّها ضَمَّةُ ذَكَرٍ يَشْتَهي أُنثاهُ، ومُنْذُ تِلْكَ اللَّيلَةِ الّتي عَجِزَ فيها عَنْ مُجامَعَتِها لا لِسَبَبٍ سِوى لِأَنَّهُ كانَ تَحْتَ سَطْوَةِ تابُواتٍ عَشَّشَتْ سَنَواتٍ وسَنَواتٍ في جُمْجُمَتِهِ.. قَرَّرَتْ ألّا تُفاتِحَهُ في المَوضوعِ الى أنْ يَصِلَ هُوَ الى قَناعَةٍ بِأَنَّ مُجامَعَةَ أُنثى بِمُوافَقَتِها لا يُفْهَمُ على أنَّهُ عَبَثٌ بِعِرْضِها، شَرْطَ ألّا تَكونَ مُتَزَوِّجَةً.. عِنْدَها تَكونُ الخيانَةُ ويَكونُ العَبَثُ! وكَمْ كانَتْ بَهْجَتُها غامِرَةً حينَ بَدَأَ يَتَجَرَّدُ مِنْ مَلابِسِهِ ويَضُمُّها اليهِ بِرِفْقٍ حيناً،

وبِبَعْضِ قَسْوَةٍ حيناً وشَفَتاهُ الظَّامِئَتانِ تَطْبَعانِ جَمْراً على العُنُقِ العاجِيِّ نُزولاً الى نَهْدَينِ ناتِئَينِ فَصُعودَاً الى شَفَتينِ جَمْرَتَينِ حيثُ يُطْفِئُ الجَمْرُ الجَمْرَا! يَفْرقُ في عَينَيها الخَضْراوَينِ، يَهْمِسُ:

- يا عُشْبَةَ الخُلودِ الّتي بَحَثَ عَنْها جلجامِشُ، وبَعْدَ أنْ وَجَدَها أضاعَها.. ها أنْتِ بَينَ يَدَيَّ!

.....وتَقولُ بِصَوتٍ مَنْ تَوَزَّعَتْ نَفْسُهُ ما بَينَ صَحْوٍ وسُلْطانِ نومٍ:

- أعِدْ حَوّاءَكَ يا جَلْجامشي الى فِرْدَوسٍ لا شَجَرٌ مُحَرَّمٌ فيهِ ولا ثَمَرٌ.....!

قَبْلَ أنْ يَزورَ الكَرى عَينَيَّ سباعي تِلْكَ اللَّيلَةَ، ونَتالي بِوَجْهِها المَلائِكِيِّ تَغْرَقُ عَميقاً في نَومِها، أحَسَّ أنَّهُ عادَ هَيولى... هَيولى تَبَدَّدَتْ ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أنْ عادَتْ فَتَجَمَّعَتْ لِتَتَشَكَّلَ جِنِّيّاً خَرَجَ لِتَوِّهِ مِنْ قُمْقُمِ النَّبِيِّ سُلَيمانَ ودَخَلَ في قُمْقُمٍ ساحِرَةٍ اسْمُها نَتالي...

في الصَّباحِ رَأَتْهُ على حالٍ غَيرِ حالِهِ في المَساءِ..قالَ بِجِدِّيَّةٍ تَعْتَريهِ حينَ يُفَكِّرُ بِأَمْرٍ هامٍّ:

- لِماذا اخْتَرْتِني أنا مِنْ دونِ خَلْقِ اللهِ! أنا العامِلَ الفَقيرَ ابنَ الفَقيرِ، وأنْتِ المُهَنْدِسَةُ، وأمامَكِ المُحامي والطَّبيبُ والمُهَنْدِسُ وحَتّى ضابِطُ الجَيشِ!؟

تَضْحَكُ ضِحْكَتَها المُحَبَّبَةَ، وتَعْرُكُ لَهُ أُذُنَهُ عَرْكاً خَفيفاً، قالَتْ:

- أتَذْكُرُ أوَّلَ لِقاءٍ بَهْلَنا؟ كانَ في غابَةِ الجَيشِ الأحْمَرِ..

- أجَلْ! وهَلْ أنْسى يَومَ مَولِدِ حُبّي الكَبيرِ!؟

Scanned with CamScanner

- بَعْدَ حَديثٍ دارَ بَينَنا شَعَرْتُ أَنَّني أَمامَ إِنْسانٍ مُخْتَلِفٍ، وبَعْدَ أَنْ قُمْتُ وغادَرتُ عُدْتُ لِأَعْرِضَ عَلَيكَ صَداقَتي.. فَكَّرتُ، كَيفَ يُمْكِنُ أَنْ أَتَنازَلَ عَنْ صَداقَةِ إِنْسانٍ، مهما كان إنتماؤُهُ العرقيُّ، خاطَبَ فِيَّ إِنْسانِيَّتي، وأَعْجِبَ بِجَمالي دونَ أَنْ يُبالِغَ في إِعْجابِهِ كَما يَفْعَلُ مَنْ يُقابِلُني مِنَ الرِّجالِ .. جَميعُهُمْ يُبْهَرونَ بِجَمالي، أَمّا عُيونُهُمْ فَكانَتْ تَفْضَحُ اشْتِهاءَهُمْ لِمُضاجَعَتي.. فَقَطْ لِمُضاجَعَتي! لَقَدْ أَتْعَبَني جَمالي كَثيراً وكِدْتُ أَفْقِدُ الأَمَلَ بِأَنْ أَجِدَ رَجُلاً لا أَرى في عَينَيهِ اشْتِهاءً بَلْ وُدّاً وتَقْديراً الى أَنِ الْتَقَيتُكَ.. فَهَلْ أَتَنازَلُ عَنْكَ يا فارِسي النَّبيل؟!

- سُؤَالي لَكِ يا مُعَلِّمَتي.. لِماذا اخْتَرْتِني... أَقْصَدُ أَيَّ جَنَّةٍ أَسْكَنْتِني! وماذا سَيَحْدُثُ لي إِنْ طَرَدْتِني مِنْها!؟

- لا تَخَفْ يا عَرْبوشي.. فَالأَحْكامُ في جَنَّتي مُؤَبَّدَةٌ!!

- إِذاً، لِتَكُنْ عَلاقَتُنا شَرْعِيَّةً..

أَدْرَكَتْ نَتالي ما يَرمي إِلَيهِ، قالَتْ: أَتَدْري كَيفَ كانوا يَتَزَوَّجونَ قَبْلَ الشَّرائِعِ السَّماوِيَّةِ.. كانَتِ المَرْأَةُ تَقولُ لِلرَّجُلِ: أَزْوَجْتُكَ نَفْسي.. فَيُجيبُ الرَّجُلُ: وأَنا قَبِلْتُ بِكِ زوجَةً..أَمّا الشُّهودُ فَقَدْ تَكونُ طُيوراً مارَّةً في السَّماءِ ساعَتَذاكَ، أو تَكونُ أَشْجاراً في غابَةٍ على مَدى النَّظَرِ، أو نُجوماً في السَّماءِ!!

- تَرَيْن إِذاً، أَنَّ عَلاقَتَنا شَرْعِيَّةٌ

- نَعَم، ما دامَ الحُبُّ حارِسَنا الأَمينَ.. الحُبُّ يا حَبيبي يَجْعَلُ الكافِرَ مُؤْمِناً!!

22

رَحَلَ الصَّيفُ يَجُرُّ وراءَهُ أَشْهُرَهُ الحارَّةَ تارِكاً الحُقولَ يَكْسوها الهَشيمُ، ويَقْتُلُها الظَّمَأُ.. وجاءَ الخَريفُ بِعَواصِفِهِ الّتي لا تَسْتَريحُ، ولا تَدَعُ أَحَداً يَسْتَريحُ، وبِعَويلِهِ على نَهاراتِهِ الّتي تَقْضِمُها لَياليهِ قَضْمَةً بَعْدَ قَضْمَةٍ.. ثُمَّ جاءَ الشِّتاءُ فَأَزْوى الأَرْضَ وكَسَرَ شَوكَةَ العَواصِفِ بِبَرْدٍ بَدَأَ خَفيفاً على الجِسْمِ وعلى الرّوحِ وانْتَهى ثَقيلاً مَمْقوتاً، خاصَّةً شَهْرَ شُباطَ الَّذي لا يَرْحَلُ قَبْلَ أَنْ يَخْتارَ مَنْ يَشاءُ مِنْ شُيوخٍ يَسْتَأْثِرُهُمْ كَرِفاقِ دَرْبٍ مُظْلِمٍ طَويلٍ لا عَودَةَ مِنْهُ!! والشَّيخُ سالِمٌ أَحَدُ الَّذينَ وَقَعَ عَلَيهِمِ الاخْتِيارُ هذا العامُ، رَحَلَ بَعْدَ أَنْ عاشَ حَتّى أَصْبَحَ هِمّاً.. بَكَوهُ بِاحْتِرامٍ، وهَيَّؤُوا لَهُ جَنازَةً تَليقُ بِشَيخٍ مِثْلِهِ قَضى حَياتَهُ المَديدَةَ مُسالِماً ومُحِبّاً لِلنّاسِ، مُقْبِلاً على الحَياةِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْسى آخِرَتَهُ، تَماماً كَما جاءَ في القَولِ: اعْمَلْ لِدُنْياكَ كَأَنَّكَ تَعيشُ أَبَداً، واعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَموتُ غَداً..

فُتِحَ بَيتُ العَزاءِ ثَلاثَةَ أَيّامٍ.. كَمْ كانَ عَزاءُ سباعي كَبيراً بِالوفودِ الَّتي حَضَرَتْ .. وبِحُضورِ العَمَّةِ أُمِّ رَشيد مَعَ رِهام وزَوجِها الرَّفيقِ نَديم تَذَكَّرَ العَمُّ (صابِر) .. وبِلَحْظَةٍ أَحَسَّ بِطَعْمِ يُتْمٍ خاصٍّ.. يُتْمِ مَنْ فَقَدَ والِدَين.. وبِانْتِهاءِ أَيّامِ العَزاءِ عادَ كُلٌّ الى شُؤُونِهِ، تَماماً كَما تَقْتَضي الحَياةُ، والحَياةُ لا تَسْتَشيرُ أَحَداً ولا تَقْبَلُ اعْتِراضَ أَحَدٍ!

Scanned with CamScanner

ما حَدَثَ بَعْدَ وفاةِ الشَّيخِ سالِم هوعَودَةُ زَوجَةِ الدُّكتورِ سامِح مِنَ المَدينَةِ حَيثُ يَعْمَلُ زَوجُها، الى القَرْيَةِ لِتَعيشَ مَعَ حَماتِها الَّتى أَصْبَحَتِ الآنَ وحيدَةً، وبِأَشَدِّ الحاجَةِ الى مَنْ يَرْعاها؛ وهذا الوَضْعُ الجَديدُ جَعَلَ سباعي يَزورُ والِدَتَهُ نَهاراً فَقَط. ويَعودُ الى الكيبوتس حَيثُ يَنامُ في غُرْفَتِهِ لَيْلاً ويَعْمَلُ في المَحْدَدَةِ نَهاراً؛ ومَحْدَدَتُهُ في القَرْيَةِ جَعَلَها شَراكَةً بَينَهُ وبَينَ قاسم الَّذي أَصْبَحَ حَدّاداً ماهِراً، وإدارِيّاً أيضاً ،يُعْتَمَدُ عَلَيهِ.. وعلى ضَوءِ هذا النِّظامِ الجَديدِ أَحَسَّتْ نتالي أَنَّ اللهَ يُحِبُّها ويَقِفُ الى جانِبِها.. كَيفَ لا وسباعي أمامَ ناظِرَيها نَهاراً والى جانِبِها لَيلاً!

***

- لِتَكُنْ عَلاقَتُنا شَرْعِيَّةً!

قالَها سباعي جاداً..أَمّا نتالي فَقَدْ قالَتْ بِحَزْم:

- لِلْمَرَّةِ المِئَةِ أقولُ لَكَ لا..! ودَعْكَ مِنْ جَلْدِ ضَميرِكَ.. أَسْلَمُ لَنا أَنْ تَظَلَّ عَلاقَتُنا على حالِها ..

- ولَكِنْ لِماذا هذا الإصْرارُ على الرَّفْضِ؟

- لَو سَأَلوكَ في القَرْيَةِ عَنْ نَوعِ العَلاقَةِ الَّتي بَينَنا، هَلْ تَجِدُ الجُرْأَةَ لِتَقولَ إنَّها زَوجَتي؟!

ويَصْمُتُ سباعي صَمْتَ طِفْلٍ سُئِلَ سُؤالاً ولَمْ يَعْرِفْ إجابَتَهُ، تابَعَتْ:

حَتّى عِنْدَنا، يَدَّعونَ التَّسامُحَ في هذِهِ المَسْأَلَةِ وهُمْ كاذِبونَ.. أَتَدْري ماذا سَيَقولونَ عِنْدَما يَعْلَمونَ بِزِواجِنا؟ سَيَقولونَ: هذهِ الفاجِرةُ أَلَمْ تَجِدْ شاباً يَهودِيّاً صالِحاً حَتّى تَخْتارَ عَرَبِيّاً قَذِراً؟!

ظَلَّ سباعي غارِقاً في صَمْتِهِ.. أَخَذَها بَينَ ذِراعَيهِ بِرِفْقٍ، قالَ:

- أُحِبُّكِ يا فاتِنَتي! وكُلُّ يَومٍ يَمُرُّ أُحِبُّكِ أَكْثَرَ..

Scanned with CamScanner

اقْتَصَرَ نَشاطُ سباعي الحِزبِيُّ على حُضورِ اجْتِماعاتِ رِفاقِ الحِزبِ الدَّورِيَّةِ.. وعلى المُشارَكَةِ بِالمُظاهَراتِ العُمّالِيَّةِ.. والمَسيراتِ الوَطَنِيَّةِ القَوميَّةِ كَمَسيرَةِ العَودَةِ، ومَسيرَةِ يَومِ الأَرضِ.. واحْتِفالاتِ الأَوَّلِ مِنْ أَيّارِ- عيد العُمّال- وذِكرى النَّصرِ على النّازِيَّةِ. ويَزدادُ نَشاطُهُ في فَتْرَةِ الإنْتِخاباتِ البَلَدِيَّةِ والبَرْلَمانِيَّةِ أُسْوَةً بِباقي الرِّفاقِ، إذْ لَمْ يَعُدِ الحِزبُ الشُّيوعِيُّ القُوَّةَ السِّياسِيَّةَ الوَحيدَةَ الّتي تَعْمَلُ في السّاحَةِ.. لَكِنَّ مُعْظَمَ وقْتِ سباعي كانَ في الكيبوتس الَّذي سُرْعانَ ما اعتادَ على الحَياةِ فيهِ، لا بَلْ وَجَدَها تُلائِمُ طِباعَهُ أَكْثَرَ خاصَّةً وقَدْ أَصْبَحَ يميلُ الى الوِحْدَةِ إلّا إذا كانَ مَعَ نَتالي... هَذِهِ السّاحِرةُ الَّتي خَرَجَتْ لَهُ مِنْ زَحْمَةِ الحَياةِ، فَحَذَفَتْ لَهُ فِقْراتٍ مِنْ سيرَةِ حَياتِهِ وأَضافَتْ مِنْ عِنْدِها مَفاهيمَ جَديدَةً جَعَلَتْ لِلْحَياةِ طَعْماً آخَرَ بِنَكْهَةِ (نَتالِيَّةٍ) مَحْدودَةِ الضَّمانِ.. كَمْ كانَتْ صادِقَةً حينَ قالَتْ لَهُ مَرَّةً: لا أَفْهَمُ يا عَزيزي علامَ يَقْتَتِلُ النّاسُ!؟ بِالحُبِّ يُمْكِنُ أَنْ نَبْني دَولَةً على مِتْرٍ مُرَبَّعٍ واحِدٍ مِنَ الأَرْضِ يَكونُ وَطَناً لِجَميعِ شُعوبِ الكَونِ!

*

بِاقْتِرابِ ذِكرى النَّصرِ على النّازِيَّةِ كانَ سباعي ونَتالي مُتَشَوِّقَينِ لِلْمُشارَكَةِ بَعْدَ تَخَلُّفِ عِدَّةِ سَنَواتٍ عَنْ ذَلِكَ، ولاحَظَ سباعي حَماسَ نَتالي الشَّديدَ هَذِهِ المَرَّةَ.. ولَكِنَّهُ لَمْ يُعِرْ انْتِباهَهُ لِذالكَ الحَماسِ، مُعْتَقِداً أَنَّ ذلكَ يَعودُ لِوَفائِها لِجَدَّيها اللّذينِ راحا ضَحِيَّةً لِلنّازِيَّةِ.. وفي اليَومِ المَوعودِ لَمْ تَلْتَقِ أَحَداً مِنْ مَعارِفِها إلّا وداعَبَتْهُ، ودارَتْ على الأَصْدِقاءِ والصَّديقاتِ تَلْتَقِطُ مَعَهُمْ صُوَراً تُسَمّيها هي تِذْكارِيَّةً.. ويَقولُ لَها سباعي: كَأَنَّكِ لَنْ تَعودي الى هُنا مَرَّةً ثانِيَةً؟! وتُجيبُهُ هِيَ بِعَيْنَينِ جَميلَتَينِ زَادَهُما رَقْراقٌ مِنَ الدَّمْعِ جَمالاً..وبِإجاباتٍ تَحْمِلُ أَسْباباً كاذِبَةً.

تَنَبَّهَ سباعي على يَدٍ تَحُطُّ على كَتِفِهِ، الْتَفَتَ الى الوَراءِ وإذا بِرِهام تَمُدُّ يُسْراها مُصافِحَةً، فَيُمْناها تُثَبِّتُ رَضيعَةً الى صَدْرِها.. كانَ اللِّقاءُ دراماتيكِيّاً الى أَبْعَدِ مَدى.. فَالشَّوقُ شَديدٌ بَعْدَ تِلْكَ السَّنَواتِ مِنَ البُعْدِ، وانْقِطاعِ الوَصْلِ إلّا مِنَ المُهاتَفاتِ الَّتي بَدَأَتْ مُتَقارِبَةً، ثُمَّ أَصْبَحَتْ تَتِمُّ حَسَبَ المُناسَباتِ.. حَضَرَتْ نَتالي، وعِنْدَما رَأَتْ رِهام قالَت باشَّةً: أَنِتِ المَليحَةُ رِهام! أَعْرِفُكِ مِمَّا حَكاهُ سباعي لي عَنْكِ.. وتَقولُ رِهام: وأَنْتِ الحُلْوَةُ نَتالي الَّتي خَطَفَتْ أَخي مِنّي! وعِنْدَما انْضَمُّوا الى العَمَّةِ أُمِّ رَشيد بَدَتْ هذِهِ مُسْتَسْلِمَةً لِلزَّمَنِ يَعْبَثُ بِها دونَ مُقاوَمَةٍ أو حَتّى اعْتِراضٍ.. ونَديم زَوجُ رَهام فَقَدْ بَدَأَ الشَّيبُ يُرْسِلُ طَلائِعَ جَيْشِهِ الى رَأْسِهِ تَحْضيراً لِمَعْرَكَةٍ شامِلَةٍ.. وشَدّاد الجَميلُ بِبُنْيَتِهِ القَوِيَّةِ وطولِهِ الفارِعِ، نِسْبِيّاً، يُبَشِّرُ بِشَبابٍ لَيسَ بِبَعيدٍ.. وهَذهِ سارة الصَّغيرَةُ بَدَتْ

Scanned with CamScanner

صورَةً مُصَغَّرَةً عَنْ رِهام... والرَّضيعَةُ ما اسْمُها؟ سَأَلَ سباعي..
وتُجيبُ رِهام بِخُبْثٍ:

- أَلَمْ تَتَساءَلْ لِماذا لَمْ نُخْبِرْكَ عَنْ اسْمِها؟ لَقَدْ خانَكَ ذَكاؤُكَ هذِهِ المَرَّةَ يا عَزيزي! إنَّها نَتالي.. نَتالي الصَّغيرةُ.. مُفاجَأَةٌ أَليسَ كَذلك؟..

وكانَتْ المُفاجَآتُ كَثيرَةً في هذِهِ الجَلْسَةِ الّتي لا تُنْسى...!!

***

عادَ سباعي ونتالي مِنْ غابَةِ الجَيشِ الأَحْمَر.. كانَ سَعيداً بِيَومِهِ الحافِلِ هذا، ويَسْتَعيدُ أَحْداثَهُ كَمَنْ يُراجِعُ مادَّةً ويُريدُ لَها أَنْ تَتَرَسَّخَ في ذِهْنِهِ كي لا تَضيعَ مَعَ روتينِيَّةِ الحَياةِ.. كانَ يَتَحَدَّثُ الى نَتالي وهي صامِتَةٌ..وحينَ أَلَحَّ عَلَيها لِيَعْرِفَ سَبَبَ صَمْتِها انْفَجَرَتْ في بُكاءٍ فَضَحَ سِرّاً كانَتْ تُحاوِلُ أَنْ تُخَبِّئَهُ عَنْهُ.. وسباعي الَّذي لا يَقْرَأُ أَفْكارَ نَتالي فَقَطْ بَلْ يَسْتَطيعُ أَنْ يَقْرَأَ ما يَدورُ في زَوايا جُمْجُمَتِها السِّرِّيَّةِ! مُنْذُ شُهورٍ خَلَتْ وهوَ يَسْأَلُها عَنْ سَبَبِ اكْتِئابٍ مُفاجِئٍ بَدَأَ يَعْتَريها وفي كُلِّ مَرَّةٍ كانَ يَسْأَلُها عَمَّا يُزْعِجُها ويُسَبِّبُ اكْتِئابَها، كانَتْ تُقَدِّمُ أَعْذاراً غَيرَ مُقْنِعَةٍ، وكانَ هُوَ لا يُلِحُّ عَلَيها كي لا يُحْرِجَها.. أَمّا الآنَ وبَعْدَ بُكائِها أَصَرَّ على مَعْرِفَةِ السَّبَبِ.. قالَتْ وبِلا مُقَدِّماتٍ:

- بِلادٌ تَقْتُلُ حُبَّكَ هلْ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَعيشَ فيها!؟ مُنْذُ مُدَّةٍ وهُمْ يَعْمَلونَ على قَتْلِ حُبِّنا يا سباعي!! سَوفَ أَتْرُكُ لَهُمْ هذِهِ البِلادَ يَزْرَعونَ الكَراهِيَةَ في رُبوعِها ما طابَ لَهُمُ الزَّرْعُ.. سَأَلْحَقُ بِأَخي لِأَعيشَ قُرْبَهُ، فَهُوَ ما بَقِيَ لي مِنْ عائِلَةٍ أَكَلَتْها الأَيّامُ .. كَمْ هاتَفَني وقالَ لي: بِلادٌ أَخْبارُ الصَّباحِ فيها تَبْدَأُ بِـ قَتَلَ وحَرَقَ واغْتَصَبَ لا مَكانَ فيها لِفَتاةٍ رَقيقَةٍ مِثْلِكِ يا نَتالي! تَعالَي فَنَعيشَ مَعاً.. ويُتابِعُ مُحاوِلاً أَنْ يُزيلَ نَظْرَتي السَّلْبِيَّةَ عَنْ الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ فَأُهاجِرَ، يقولُ: صَحيحٌ إنَّ الحاكِمينَ هُنا في رَأْسِ هَرَمِ الَّذينَ يَذْبَحونَ ويَحْرِقونَ لَكِنَّ النّاسَ طَيِّبونَ...وأَنا أَقولُ لِأَخي لا! وأُمّي النَّفْسَ بِلَعَلَّ وعَسى.. ولكِنْ الى مَتى؟ أَجِبْني.. الى مَتى؟! على كُلٍّ سَتَكونُ إقامَتي مَعَ أَخي مُؤَقَّتَةً، وذلكَ رِبْما أَتَدَبَّرُ أُموري فَأَنْتَقِلُ الى دَولَةٍ أوروبِّيَّةٍ تَحْتَرِمُ مُواطِنيها! والأَرْجَحُ أَنْ تَكونَ فِنْلَنْدا..

ويَتَذَكَّرُ سباعي مَواقِفَ كَثيرَةً مُحْرِجَةً كانَتْ تُحْدُثُ لَهُما وهُما مَعاً، أَقْبَحُها يَومَ كانا على كورنيشِ عَكّا، كَيفَ هاجَمَهُ شابّانِ يَهودِيّانِ، وكَيفَ حَضَرَ شُرْطِيّانِ، وبَدَلَ أَنْ يَعْتَقِلا الشّابَّيْنِ المُهاجِمَيْنِ تَرَكاهُما وانْهالا عليهِ بِأَسْئِلَةٍ لا يَدْري سَبَبَها، ولولا وَساطَةِ نتالي الّتي أَسَرَّتْ لَهُما بِشَيءٍ لَكانا اعتَقَلاهُ.. قالَ وكَلامُهُ يَرْشَحُ عَجْزاً وحُزْناً:

- إذاً أنا السَّبَبُ!

- بَلْ خَوفي عَلَيكَ أَوَّلاً هو السَّبَبُ.. أَتَذْكُرُ حادِثَةَ عَكّا؟ لَو لَمْ يَتَأَكَّدوا مِنْ مُغادَرَتي البِلادَ لَكانوا اعْتَقَلوكَ.. والأَسْبابُ يا ما

Scanned with CamScanner

أكثرها عِندَ الشُرطَةِ، خاصَّةً إذا كانَ المَوقوفُ عَرَبِيّاً!! مُكالَماتٌ هاتِفِيَّةٌ، ورَسائِلُ تَصِلُني.. يَكفيني ما تَحمِلُ مِنْ شتائِمَ وتَهديداتٍ لي ولَكَ.. بَلْ ولَكَ الحَظُّ الأوفَرُ مِنها ..

- وهَلْ هذا يَجعَلُكِ تُهاجِرينَ؟ إنَّهُ مُجَرَّدُ تَهويلٍ يا حُلْوَتي..

- حينَ يَطالُ الأمْرُ إدارَةَ الكيبوتس لا يَكونُ تَهديداً.. لِنُهاجِرْ يا سباعي!

- تَطلُبينَ المُستَحيل!

- لِماذا؟! هذهِ بِلادٌ مُشَوَّهَةٌ.. لِنَرْحَلْ يا حُبّي!!

- وهَلْ الأُمُّ تُلقي بِطِفلِها بَعيداً إذا وُلِدَ مُشَوَّهاً!؟ وكما قالَ الشّاعرُ سالِم جُبْران..

- مَنْ هُو سالم هذا؟

- إنَّهُ صَديقُ صاحِبِ ريتا.. يَقولُ سالِمٌ:

كَما تُحِبُّ الأُمُّ طِفلَها المُشَوَّها،

أُحِبُّها... حَبيبَتي بِلادي!

وتابَعَ: ثُمَّ بَعْدَ أنْ صادَروا لي أرْضي، وهُوِيَّتي، وحَقّي في العَيشِ الكَريمِ هَل أتْرُكُ لَهُمْ بَيتي، وأديرُ ظَهْري لِمآسي شَعْبي؟ لا.. لا.. يا حَبيبَتي!!

- مَنْ غَيري يَفْهَمُكَ؟! ولَكِنْ يَجِبُ أنْ نَجِدَ طَريقاً، حَتّى لو كانَ الأصْعَبَ، لِكي نَخرُجَ مِنْ هذهِ المَتاهَةِ!! وأنْتَ إذا بَقيتَ على عَنادِكَ ولا تُريدُ أنْ تُهاجِرَ مَعي الآنَ، أو تَلْحَقَ بي، رُبَّما! فَبِمُغادَرَتي البِلادَ بِدونِكَ، اتْرُكِ الكيبوتس قَبْلَ أنْ تَطْلُبَ الإدارَةُ هذا مِنْكَ..

ولا تَلْمَهُمْ، إنَّهُمْ مُكْرَهونَ أيضاً.

اللَّيلَةُ الأخيرَةُ مَعاً لَمْ تَكُنْ لَيلَةَ حُبٍّ، ولَمْ تَكُنْ لَيلَةَ وداعٍ بَلْ كانَتْ لَيلَةَ ما قَبْلَ تَنفيذِ الحُكْمِ بِالإعْدامِ.....! لَمْ يَجِدْ سباعي كَلاماً يُعَبِّرُ بِهِ عَنْ حالِهِما غَيرَ كَلِماتِ مَحْمود دَرويش حينَ قالَ:

بَينَ ريتا وعُيوني بُنْدُقِيَّهْ

آهِ ريتا....

بَينَنا مَليونُ عُصْفورٍ وصورَهْ

ومَواعيدُ كَثيرَهْ

أطْلَقَتْ ناراً عَلَيها بُنْدُقِيَّهْ.

*

أقْلَعَتِ الطّائِرَةُ صَباحاً تَحْمِلُ مَعَها قَلْبَ وروحَ سباعي ..كانَ يَتْبَعُها بِنَظَراتٍ مِنْ عَينَينِ طَفّانَتَينِ دَمْعاً .. كانَتْ تَبْتَعِدُ وتَصْغُرُ.. وتَبْتَعِدُ وتَصْغُرُ حَتّى بَدَتْ لَطْخَةً سَوداءَ على وُجوهِ مَنْ لا يَعْرِفونَ المَحَبَّةَ، لا بَلْ يَقْتَلِعونَها مِنْ جُذورِها!!.. وأحَسَّ أنَّ ما تَبَقّى لَهُ مِنَ الوَطَنِ هو هَذِهِ البُقْعَةُ الصَّغيرَةُ مِنَ الأرْضِ الّتي يَطَأُ عَلَيها بِقَدَمَيهِ....

***

Scanned with CamScanner

24

انْتَقَلَ سامح مَعَ عائِلَتِهِ مِنْ بَيتِ والِدَتِهِ الى بَيتِهِ الّذي ابْتَناهُ في القَرْيَةِ وفَتَحَ لَهُ عِيادَةً خاصَّةً يَعْمَلُ فيها حينَ يَتَواجَدُ هُناكَ. هذا الى جانِبِ عَمَلِهِ في المُسْتَشْفى. كَيفَ لا يَفْتَحُ عِيادَةً كَهذِهِ وهو الطَّبيبُ الماهِرُ والمُخْتَصُّ بِأَمْراضِ الجِهازِ الهَضْمِيِّ وأوجاعِهِ..فَما أَكْثَرَها وما أَحْوَجَ النّاسَ الى طَبيبٍ مِثْلِهِ في القَرْيَةِ!! وضَمَرَ في سِرِّهِ أَلّا يَكونَ أَقَلَّ مِنْ طَيِّبِ الذِّكْرِ الدّكْتور أديب الخازن في تَعامُلِهِ الإنْسانِيِّ مَعَ مَرْضاهُ: كانَ الطَّبيبَ الأَوَّلَ في قَضاءِ عَكّا. وكَمْ سَمِعَ مِنْ والِدِهِ القِصَصَ الكَثيرَةَ عَنْ إنْسانِيَّتِهِ. فَقَدْ كانَ يَتَقاضى أُجْرَتَهُ مِنْ مَرْضاهُ بِحَسَبِ وَضْعِهِم الاقْتِصادِيِّ الّذي يَسْتَشِفُّهُ مِنْ أَسْئِلَتِهِ لَهُمْ: أَمّا المُعْدِمونَ مِنْهُمْ فَكانَ يُعالِجُهُمْ مَجّاناً!! ويَتَذَكَّرُ سامِح كَمْ مِنْ أَرواحٍ أَنْقَذَها - هذا الطَّبيبُ الّذي لَنْ تَلِدَ الوِلّاداتُ مِثْلَهُ! على حَدِّ قَولِ والِدِهِ - مِنْ مَوتٍ مُحَقَّقٍ. إذْ كانَ النّاسُ يَعْتَمِدونَ على التَّداوي بِالأَعْشابِ. أو حَسَبِ وَصْفاتٍ طِبِّيَّةٍ يَصِفُها لَهُمْ أَشْخاصٌ عُرِفوا بِاهْتِماماتِهِمْ بِالتَّطْبيبِ. كَالكَيِّ بِالنّارِ . أوِ الفَصْدِ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الدَّمِ الفاسِدِ!! أو شُربِ جُرْعَةٍ مِنَ الكازِ على الرِّيقِ!! أَمّا أَغْرَبُ هذِهِ الوَصْفاتِ فَكانَ إعْطاءُ المُصابِ بِداءِ الصَّفَرِ مِنَ الأَطْفالِ فِنْجاناً مِنْ بَولِهِ! يَشْرَبُهُ بَعْدَ أَنْ يوقِظوهُ مِنَ النَّومِ في اللَّيلِ. حَيثُ يَكونُ ما بَيْنَ صاحٍ ونائِمٍ فَكانَ لا يَدْري ما هذا السّائِلُ الكَريهُ الّذي يَشْرَبُهُ!!....

تَذَكَّرَ سامح كُلَّ هذا دونَ أَنْ يُنْكِرَ أَنَّ التَّداوي بِالأَعْشابِ اليَومَ لَهُ دَورُهُ الإيجابِيُّ. شَرْطَ أَنْ يَكونَ على يَدَي مُخْتَصّينَ دارِسينَ.

أَمّا سباعي فَقَدْ عادَ مِنَ الكيبوتس لِيَعيشَ مَعَ والِدَتِهِ. يَرْعاها في شَيخوخَتِها. ولِيُعيدَ جَدْوَلَةَ حَياتِهِ على ضَوءِ واقِعِهِ الجَديدِ.. باعَ المَحْدَدَةَ لِقاسِم.. الّذي باتَتْ تَرْبِطُهُ بِهِ علاقَةُ أَبٍ بِابْنِهِ: وصارَ يَكفيهِ ما أَمَّنَ بِهِ حَياتَهُ مِنْ صَناديقِ تَوفيرٍ، وتَأْميناتٍ.. وقَبْلَ أَنْ يَتْرُكَ المَحْدَدَةَ أَنْزَلَ صورَتَي ماركس ولينين. رَغْمَ مُعارَضَةِ قاسِم.قالَ:

- عَلِّقْ مَكانَهُما" وبِالوالِدَينِ إحْسانا "

لَمْ يَخْفَ على قاسِم قَصْدَ مُعَلِّمِهِ. وهو تِلْميذُهُ النَّجيب. قالَ:

- اعْتَبِرْ المَوضوعَ الّذي تُلَمِّحُ لَهُ قَدْ تَمّ.. اللَّيلَةَ سَأَزورُ والِدَيَّ، وعَفا اللهُ عَمّا مَضى..! ولَكِنْ لي طَلَبٌ عِنْدَكَ عَمّي سباعي.. أُريدُكَ أَنْ تَطْلُبَ لي يَدَ بُدُور بِنْت حامِد..

قالَ وَقَدْ اعْتَراهُ فَرَحٌ غامِرٌ:

- نِعْمَ ما اخْتَرتَ.. بَيتٌ مَسْتورٌ وحامد صَديقُ الطُّفولَةِ. لِلثِّقَةِ المُتَبادَلَةِ بَيْنَنا لا يَرُدُّ لي طَلَباً.. مِنَ الآنَ اعْتَبِرْ بُدُور زَوجَةً لَكَ على سُنَّةِ اللهِ ورَسولِهِ..

***

Scanned with CamScanner

وماذا بَعْدُ يا سباعي !؟ يا ابنَ سالِم وسَليمَة .. وُلِدْتَ ابْنَ سَبْعَةٍ، فَظَن البَعْضُ أَنَّكَ ابْنُ الخَطيئَةِ، وسُمِّيتَ شَدّاداً ويَفَعْتَ باسْمِ سباعي.. وكَبِرْتَ فَتَفَهَّمْتَ، فَتَسامَحْتَ فَقَبِلْتَ.. تَعَلَّمْتَ فَنَجَحْتَ.. أَرَدْتَ الوُصولَ الى المَعاهِدِ العُلْيا، فَشَدَّكَ الفَقْرُ الى أَسْفَلَ فَانْشَدَدْتَ.. وصادَقْتَ الكِتابَ فَعادَ وشَدَّكَ الى أَعْلى فَعَلَوتَ.. عَمِلْتَ ناطوراً، فَرَأَيتَ وسَمِعْتَ: فَعَميتَ عَمّا رَأَيتَ، وصَمَّتْ أُذُناكَ فَما سَمِعْتَ، وكَمْ أَفْرَحَكَ ما قالَتْ إِحْداهُنَّ: سباعي أَشْرَفُ مَنْ عَرَفْتُ! .. تَعَرَّفْتَ على العَمِّ صابِر فَاتَّخَذْتَهُ مُعَلِّماً .. وسَمِعْتَكَ حينَ قُلْتَ: مَنْ عَلَّمَني حَرْفاً صِرْتُ لَهُ عَبْداً، غَضِبَ وقالَ: بَلْ قُلْ: مَنْ عَلَّمَني حَرْفاً صِرْتُ لَهُ رَفيقاً! .... وأَطْلَلْتَ عَلَيكَ رِهام، دافِئَةً كَشَمْسٍ في يَومٍ غائِمٍ بارِدٍ، وأَسْبَغَتْ عَلَيكَ الحُبَّ، فَتَسَرْبَلْتَهُ ثَوبَ إِخاءٍ وطَهارَةٍ! ... وظَهَرَتْ لَكَ نَتالي كَجِنِّيَّةٍ مِنْ خُضْرَةٍ غابَةٍ فَنَثَرَتْ عَلَيكَ سِحْرَها، وأَيقَظَتْ فيكَ شَباباً غافِياً مَنْسِيّاً، فَعِشْتَ مَعَها حُلُماً وعاشَتْ مَعَكَ واقِعاً، قالَتْ لَكَ: الحُلْمُ سَعادَةٌ تَتَلاشى أَسْرَعَ مِنْ دُخانِ سيجارَةٍ لَحْظَةَ أَنْ يَفْتَحَ المَرْءُ جَفْنَيهِ! والواقِعُ عَسَلٌ مُرٌّ! هَلْ سَمِعْتَ بِالعَسَلِ المُرِّ يا عَرْبوشي!؟ إِنَّهُ عَسَلُ زَهْرَةِ القَطْلَبِ، أَوَّلُهُ حُلْوٌ وآخِرُهُ مُرٌّ..

والآنَ... وبَعْدَ أَنْ حَمَلَتْ نَتالي الحُلْوَ مِنَ العَسَلِ المُرِّ وطارَتْ مُجْفَلَةً مِنْ عَينٍ بُنْدُقِيَّةٍ، وتَرَكَتْكَ وَحيداً تَغْرَقُ في المُرِّ مِنْهُ..... فَمَنْ أَنْتَ؟!... مَنْ أَنْتَ.....!!!

- أَنا نَمْلَةٌ تَدِبُّ الى غاياتِها فلا يَراها أَحَدٌ ولا يُسْمَعُ لَها دَبيبٌ.....

*

يَتَنَبَّهُ سباعي على رَنينِ البِلِيفون.. جاءَ صَوتُ نَتالي، كالعادَةِ، لِيُرَمِّمَ في صَدْرِهِ فَرَحاً مُهَدَّماً، ولِيَمُدَّهُ بِالرّاحَةِ لَحينِ المُكالَمَةِ التّالِيَةِ.....

تَمَّتْ بِتاريخ 7سِبْتِمْبِر2016

Scanned with CamScanner

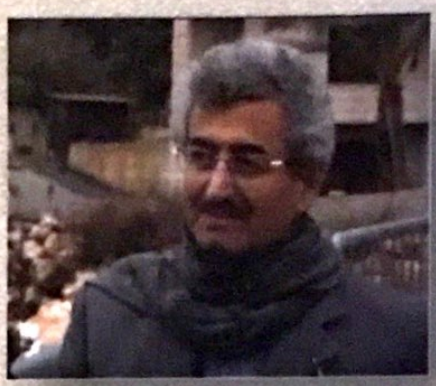

عادَ سباعي ونتالي مِنْ غابَةِ الجَيشِ الأَحْمَر.. كانَ سَعيدًا بِيَومِهِ الحافِلِ هذا، ويَسْتَعيدُ أَحْداثَهُ كَمَنْ يُراجِعُ مادَّةً ويُريدُ لَها أَنْ تَتَرَسَّخَ في ذِهْنِهِ كي لا تَضيعَ مَعَ روتينِيَّةِ الحَياةِ.. كانَ يَتَحَدَّثُ الى نَتالي وهي صامِتَةٌ.. وحينَ أَلَحَّ عَلَيها لِيَعْرِفَ سَبَبَ صَمْتِها انْفَجَرَتْ في بُكاءٍ فَضَحَ سِرًّا كانَتْ تُحاوِلُ أَنْ تُخَبِّئَهُ عَنْهُ.. وسباعي الَّذي لا يَقْرَأُ أَفْكارَ نَتالي فَقَطْ بَلْ يَسْتَطيعُ أَنْ يَقْرَأَ ما يَدورُ في زَوايا جُمْجُمَتِها المُظْلِمَةِ! مُنْذُ شُهورٍ خَلَتْ وهوَ يَسْأَلُها عَنْ سَبَبِ اكْتِئابٍ مُفاجِئٍ بَدَأَ يَعْتَريها .. وفي كُلِّ مَرَّةٍ كانَ يَسْأَلُها عَمَّا يُزْعِجُها ويُسَبِّبُ اكْتِئابَها، كانَتْ تُقَدِّمُ أَعْذارًا غَيرَ مُقْنِعَةٍ، وكانَ هُوَ لا يُلِحُّ عَلَيها كي لا يُحْرِجَها.. أَمّا الآنَ وبَعْدَ بُكائِها أَصَرَّ على مَعْرِفَةِ السَّبَبِ.. قالَتْ وبِلا مُقَدِّماتٍ:

بِلادٌ تَقْتُلُ حُبَّكَ هلْ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَعيشَ فيها!؟ مُنْذُ مُدَّةٍ وهُمْ يَعْمَلونَ على قَتْلِ حُبِّنا يا سباعي!! سَوفَ أَتْرُكُ لَهُمْ هذِهِ البِلادَ يَزْرَعونَ الكَراهِيَةَ في رُبوعِها ما طابَ لَهُمُ الزَّرْعُ.. سَأَلْحَقُ بِأَخي لِأَعيشَ قُرْبَهُ، فَهْوَ ما بَقِيَ لي مِنْ عائِلَةٍ أَكَلَتْها الأَيّامُ .. كَمْ هاتَفَني وقالَ لي: بِلادٌ أَخْبارُ الصَّباحِ فيها تَبْدَأُ بِـ: قَتَلَ وحَرَقَ واغْتَصَبَ لا مَكانَ فيها لِفَتاةٍ رَقيقَةٍ مِثْلِكِ يا نَتالي! تَعالَي فَنَعيشَ مَعًا.. ويُتابِعُ مُحاوِلاً أَنْ يُزيلَ نَظْرَتي السَّلْبِيَّةَ عَنْ الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ فَأُهاجِرَ، يَقولُ: صَحيحٌ إِنَّ الحاكِمينَ هُنا في رَأْسِ هَرَمِ الَّذينَ يَذْبَحونَ ويَحْرِقونَ لَكِنَّ النّاسَ طَيِّبونَ...وأَنا أَقولُ لِأَخي لا! وأُمَنّي النَّفْسَ بِلَعَلَّ وعَسى.. ولكِنْ الى مَتى؟ أَجِبْني.. الى مَتى؟!

إصدار أ. دار الهدى - عبد زحالقة

050-5252917 050-5708835 04-6353439

daralhoda.1@gmail.com

Scanned with CamScanner